

عنوان الكتاب : بِنْتُ نبي

المؤلف : مَحْمُود حَافِظ

المراجعة اللغوية : عبد الهادي عباس

الإخراج الداخلي : رشا عبدالله

تصميم الغلاف : اسلام مجاهد

رقم الإيداع : 1538/ 2017

ردمك : 978-977-6549-22-7

الطبعة الأولى: يناير 2017



المدير العام : هاله البشبيشي

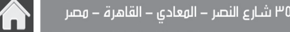
المدير التنفيذي : شريف الليثي

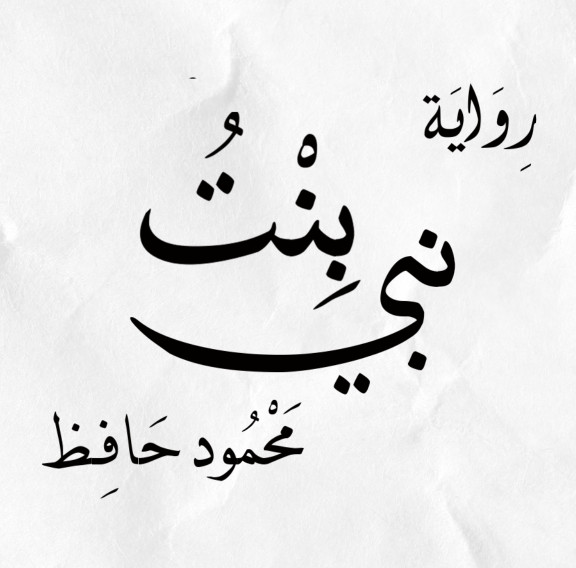


دار تويا للنشر والتوزيع









دار تويا للنشر والتوزيع



بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿بَلْ يُرِيدُ الإنْسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ[١]﴾

صَدَقَ اللّهُ العَظِيمُ

---

(١) القِيَامَة ٥ القرآنُ الكريمُ



" بلَا ثِيرَانٌ، تَظَلُّ الحَظِيرَةُ نَظِيفَةً، وَلَكِنَّ عَظِيمَ الفَائِدَةِ يَأْتِي مِنْ قُوَّةِ الثَّوْرِ[1]"

(١) الإِصْحَاحُ الرَّابِعُ عَشرَ ٤ سِفْرُ الأَمْثَالِ العَهْدُ القَدِيمُ



الجزء الأول

سجين



— ١ —

أراهُ هنـاك.. يعلـو قمـةَ الجبـلِ، يرفـعُ خطمَـه في شـموخٍ مُطلقًـا عـواءَه العتيـد... رهيبًـا، حزينًـا يملأ الكـون، الذئـب.. هــو في أثــري مثـل كلِّ يــومٍ، هــا أنــذا عنــد ســفح الجبــل.. ضعيـف.. أعـزَل، أرتجـفُ خوفًـا وبـردًا، أعـرفُ أنـه يقصـدُني.. يرمُقنـي مليًّـا مـن عليائِـه ثـم يهبـطُ الجبـلَ حثيثًـا في اتجاهي، أتجمَّــد للحظــةٍ، عينــاي تتحجــران صوبــه... وأخــيرًا أطلــق ســاقيَّ للريــح.

أبتعـدُ عنـه قـدْر مـا تسـمحُ قدمـاي النَّهَّابتـان لـلأرض، الضــوء ضنــينٌ عزيــزٌ رغــم اكتــمالِ القمــر، ودبيــب قوائمــه الأربعـة خلفـي... يختلـط مـع وجِيـبِ قلبـي، رئتـاي تحترقان... قدمـاي تشجُبان سـوءَ المعاملـة، حاولـتُ الاسـتماتة في العـدْو رغــم معرفتــي أنــه لا فائــدة؛ فمنــذ متــى والمــرء ينجــو في الكوابيــس؟! وفي الكابــوس رقــم عشريــن!

فعـلًا... أنـا في كابـوسٍ، تكـرَّر عشريـن مـرةً حتـى صرتُ أُدرك وجـودي فيـه أثنـاء نومـي، عنـاصره ثابتـةٌ في كلِّ مـرةٍ.. الجبـل.. الجـرف.. والذئـب، يُطـاردني الذئـبُ لأهـوى مـن الجـرْف إلى البحـر المظلـم، لا يحـدثُ هـذا للنهايـة وأصحـو بينـما أهـوِي مـن حالـقٍ، ويـترددُ صـوتٌ قريـبٌ يُناديـنـي، أيكـون صـوت أحدهـم يوقظنـي في الواقـع؟ ليتـه يفعـلُ هـذا الآن، فكابـوسُ اليـوم أشـدُّ هـولًا، وتحقـق مـرادي إذ سـمعتُ الصـوت.. يُنـادي باسـمي مـن جديـدٍ، انتهـى الأمـرُ إذن... لكنـي لم أصحُ بعـد.

بـل لمحـتُ ظـلًّا طويـلًا أمامـي، ظـلًّا حيوانيًّـا بالتأكيـد، كتلـةً سـوداءَ في الضـوء الشـحيح، يمـضي عكـس الاتجـاه عـلى أربـع هـو الآخـر، يقصـدني أنـا بـكلِّ تأكيـد، لقـد تطـوَّر الكابـوس أخـيرًا... فليتهـدم الماخـورُ عـلى رؤوسِ مَـن فيـه إذن، تركـتُ نفـسي لهـما... أرحـتُ أنفـاسي لوهلـةٍ، فالمصـيرُ واحـدٌ وسـأصحو بـين أنيـاب أحدهـما، وصـل الـشيء الطويـلُ البديـنُ إليَّ أولًا.. مـدَّ ذراعيْـه المخلبيتـيْن و... حملنـي، نَعـم حملنـي وانحنـى ليضعنـي عـلى ظهـره ثـم أكمـلَ طريقـي القديـم بعيـدًا عـن الذئـبِ.

كان يبـدو كـدبٍّ عمـلاقٍ، أنقـذني مـن ذئبـي، يمـضي بي بأقـصى سُرعتـه، فتشـبثتُ بـه بـكلِّ عَزمـي، لـن أُفلتـه ولـن

أدعـه يُفلتنـي، هـو فعلًا دبٌّ ومـا دام كذلـك، فهـو في صفّـي، أرجـو هـذا في الحُلـم عـلى الأقـل، وسـمعتُ الصـوتَ يُنـادي مـن جديـدٍ... يعلـو باسـمي... يصـيرُ أجـشَّ قاسـيًا بالتدريـج و... وهنـا صحـوتُ، صحـوتُ عـلى أقـصى ألمٍ يُمكـن للمـرء النائـم أن يتوقعـه.

****

-٢-

تهـوِي الصَّفعـةُ فـوق خـدِّي بـكلِّ قوَّتهـا، لم يدَّخـر صاحبُهـا جهـدًا حـين قـرَّر إيقاظـي، أصحـو مُرتعبًـا مُرتعـدًا في سَريـري، أبحـثُ عـن مُهاجِمـي في ذعـرٍ، شـهقتُ كمـن يـرى جحيـم الخطـاة، حـين قابلنـي الوجـهُ الغاضـبُ القبيـحُ في ضـوء القنديـل، يرمقُنـي متوعـدًا بقسـوةٍ.. مـع خمسـةِ وجـوهٍ أخـرى تحتـلُّ المشـهد، كلهـا لمجانيـقَ بشريـةٍ شـغلت غرفتـي الصغـيرة، مدججـين بالسـلاحِ كمـن خـرج للحـرب، ألم ينتـه الكابـوس بعـدُ؟

- "ما... ما الأمر؟!"

- "تعالْ معنا!"

- "ولكن..."

لطمـةٌ أخـرى تطالنـي، كانـت إجابـة اعـتراضي، شـعرتُ فـورًا بطعـم الـدم الصـدئ عنـد طـرف شـفتي، بينـما تجذبنـي أياديهـم المنجليـة بـلا كلمـةٍ أخـرى لخـارج الغرفـة، يركلـون كلَّ مـا يعترضهـم، طاولتـي الخشـبية وكتبـي العديـدة عـلى الأرض، تتبعهـم قدمـي وحدهـا بـلا إرادةٍ منـي.

هـؤلاء القـومُ يبغـون طاعتـي وحسـب، أسـلحتهم والألـوان السـوداء عـلى أجسـادِهم تُوحـي بأنهـم مـن أمـن العاصمـة، مـع لهجتهـم الآمـرة القاطعـة، كل هـذا يعنـي أنهـم مأمـورون بنقـلي لمـكانٍ مـا، تركـتُ نفـسي لهـم، عرفـتُ أن الوقـت قـد حـان، إلى المنفـى حتـمًا أو العـذاب الفعـلي ووداعًـا لذئـبِ الأحـلام الطيِّـب المسَـالِم.

كنـتُ دائمًـا مُختلفًـا عـن الرَّكْـب، مُـترددًا بشـأن مسـلماتي ونظـراتي للأمـور، اختـلافي جلـب لي الحـيرة.. التخبـط.. والوبَـال، أنـا ضـدُّ عالمـي... وعالمـي سـيقتصُّ منـي يومًـا مـا، تلـك هـي جريمتـي كـما قـال لي صديقـي الوحيـد مـرارًا، لسـتُ معـه فأنـا ضـده... حتـى لـو لم أحاربْـه، كقطبـيْ مغناطيـس متشـابهيْن يتنافـران، حسـب مـا درسـتُه في الفيزيقـا، لكنـي لا أشـبه عالمـي... فكيـف أتنافـرُ معـه؟!

ذرَع القـومُ بي صحْـن داري، تطـوفُ بذهنـي الخواطـرُ... تسـعى لتفسـير الواقـع العسـيرِ، أمـي وأبي يرمقاننـي بعيونهـما

الناعسـةِ المُجفلـةِ في ركـنٍ قـصيٍّ، لا بـد أنهـما أدركا مثـلي استحالةَ التعامـل مـع هـؤلاء، والـداي لم يهتـمَّا يومًـا بحـالي الغريـبِ وأطـواري الأغـرب، هـذا مصيرُ كلِّ مَـن كان مثـلي عـلى كلِّ حـالٍ، ربمـا تكـونُ النظـرات الأخـيرة بيننـا، نظـرتُ إليهـما في جـوعٍ.. جـوعٍ إلى كلِّ نظـرةٍ.

أخرجـوني إلى الليـلِ البهيـمِ، البيـوتُ ترمُقنـي بتشـفٍّ عـلى جانبـيْ بيتِـي، كلهـا مـن القـشِّ أو الطـوب اللـبِن، تعجُّ بالآخريـن المُسـالمين السَّـالمين، مُسـالمين للمجتمـع وهكـذا صـاروا سـالمين، لا تنتظرهـم مثـلي عربـةٌ مُدعمـةٌ بالقضبـان الحديديـة مـن كلِّ جهـةٍ، تجرُّهـا أربعـة جيـادٍ لا تختلـفُ عـن أصحابهـا في شيء، دفعـوني في القفـص مـع اثنـين منهـم، وألهبـوا ظهـورَ الخيـل بسـياطٍ آلمنـي صوتُهـا، فانطلقـت سـنابكُها لا تلـوي عـلى شيءٍ، غطُّـوا وجهـي بقـماشٍ فضفـاضٍ كيـلا أرى الطريـقَ، ارتـاح سـاعدِي أخـيرًا مـن أصابعهِـم، عـلى الأرجـح... ليـس لوقـتٍ طويـلٍ.

***

لطـماتٌ وصفعـاتٌ أخـرى أيقظتنـي، إذ نمـتُ مُتكـورًا رغـم حركـة العربـة السريعـة المهتـزة، حاولـت تهدئتهـم بكلـماتٍ متوسـلةٍ ليكفـوا الأذى فـزادوا في غيِّهـم، استسـلمتُ مـع دمـوعٍ

طفتْ من عيني تحت القماش، أزاحوه وأخرجوني حيث استقرَّت العربةُ أخيرًا، خرجتُ منها ليفاجئني المشهدُ المهيبُ الذي لم أتوقعه في أجمح أحلامي.

قصرٌ شامخٌ أبيضُ الجدران، يتنافر بياضُه بشدةٍ مع عتمة الليل المقمر أعلاه، ذو أبراجٍ بالغةِ الطول وقبابٍ عديدةٍ، تنتشرُ المشاعلُ في الأبراج فيما انتصب فيها جنودٌ سودٌ آخرون شاكُّو السلاح من قِسِيٍّ ورماحٍ، تنتهي الأبراج والقباب قاطبةً بهلالٍ لامعٍ في ضوء النيران، ويسألني عقلٌ كالمعتاد في أحلك المواقف؟! ما فائدة القباب.. وما معنى الهلال؟! وأي قصرٍ مهيبٍ هذا؟!

يقتادُني الرجالُ من جديدٍ لباب القصر هذه المرة، عليه الجنودُ السودُ مُسلحين كأفضل ما يكون، كل شيء أسود.. كلُّ شيء مظلمٌ كاحلٌ، بالداخل كانت شبكة مُعقدة من الممرات الصخرية المضاءة بالقناديل، ننتقلُ من ممرٍّ لممرٍّ وألمح أجساد الجنود السوداء تلمعُ في كل اتجاه، هذا كابوسٌ.. حتمًا كابوس، كنتُ نائمًا في سريري وإذ بي هنا في هذا القصر... بل هذا السجن، نعم سجن.. الأبوابُ والنوافذُ ذات القضبان في كل مكانٍ، هذا هو معتقلي ومنفاي.

يجرُّونني جرًّا، يُعاملوني أسوأ من بغلٍ في حظيرةٍ، طفح الكيل وغُصصتُ بالهول حتى فاض وأغرقني، وجدتُ نفسي أصرخُ وأزومُ كوحشٍ حبيسٍ، اتركوني.. دعوني يا أوغاد.. يا أوباش، تبادلتِ القبضاتُ جسدي العاري من أيِّ حمايةٍ، تتبعها الركلاتُ والصفعاتُ وما شابه، في النهاية صرتُ كومةً ضعيفةً في أيديهم، يجرُّون جسدي الخانع المستسلم للأرض، ولم يمض الكثيرُ حتى فتحوا بابًا وألقوا بي هناك، صفقوا الباب خلفي بعنف.

- "أخطأتَ يا صديقي.. كدتَ تصل بالفعل، ما كان عليك أن تقاومهم للحظة"!

سمعتُه... صوتًا منهكًا بشدةٍ يُكلمني، رَفعتُ رأسي مُستطلعًا المكان، زنزانة كئيبة ضيقة، بها مشعلٌ واحدٌ، وعلى ضوئه... رأيتُ كليْهما يتطلعان إليَّ، أحدهما مُغطى الوجه بقماشٍ يُخفي ملامحَه كلها عدا فتحتين للعينين، كان الأقربَ إليّ ويبدو أنه من تكلَّم للتوِّ، أما الآخرُ فكان كهلًا يستندُ لجدار الزنزانة باسمًا بمرارةٍ، قال حين نظرتُ إليه:

- "يا مرحب... يا ميت ألف مرحب... شرَّفت الزنزانة"!

تلك اللغة الشعبية المتدنية التي تكلم بها الكهل، يتكلمها أسافلُ القوم معيشةً وتعليمًا، لا تجدهم سوى

في المناطـقِ العشـوائيةِ الغارقـةِ في الفقـرِ والبـؤسِ بعيـدًا عـن العاصمـة.

لفـت نظـري شيءٌ مـا في الأرضيـة، عليهـا نقشـةٌ لا أفهمهـا، مسـتطيلاتٌ تتجـه كلهـا لاتجـاهٍ واحـدٍ، كأنهـا تشـيرُ لـشيءٍ مـا، أيَّ سـجنٍ هـذا؟! لمـس ذو القنـاع حـيرتي ووهنـي، تقـدَّم إليَّ وأسـندني للجـدار، جسـده يحمـلُ آثـارًا للتعذيـب لا تختلـفُ في شيءٍ عـن زميلـه الكهـل، قـال مواسـيًا:

- "لا تخفْ.. نجوتَ لوهلةٍ منهم... هلَّا نتعرَّف؟"

نظـرتُ إليـه بضعـفٍ... مـا زلـت غـير مسـتوعبٍ لـكلِّ مـا أنـا فيـه، ربَـت عـلى كتفـي الموجـوع وقـال هـازًّا رأسـه:

- "محمد عيسى... دين"

دين؟... ما قصده؟ لكن الآخر عاجلني بقوله:

- "وأنا... غاندي مانديلا... سياسة"

سياسـة؟... فهمـت قصدهـما بعـد برهـةٍ، رددتُ أخـيرًا بصـوتٍ مُتحـشرجٍ جـرَّاء الـصراخ:

- "إيساف... إيساف برصيصة، أنا لا أعرف لماذا أنا هنا"

ارتفعت ضحكاتُ الكهل مجلجلةً في المكان:

- "إيساف... وبرصيصة؟!.. إيه الورع ده كله! تصدّق؟!.. من اسمك ده ممكن أخمِّن تهمتك، أنا سياسة وهو دين.. تبقى إنت إيه؟ أكيد سيكو سيكو طبعًا! عشان نكمِّل مع بعض الثالوث المحرم! عمومًا.. وعشان بسّ تبقى في الصورة، إنت دلوقت في أفظع سجن ممكن تتخيله"..

- "أفظع.. أفظع سجن؟!... لماذا؟"

يقف ذو القناع ناظرًا نحوي، يقول في حسمٍ:

- "الإجابة عندك يا إيساف... من أجل تهمتك بالتأكيد، وكما قال غاندي.. أنت الآن... هنا معنا، في أسوأ سجن على الإطلاق.. أو كما يُسمونه عادة... (المسجد)".

***

-٣-

لسببٍ ما وجدتُ نفسِي أسأل:

- "لماذا... لماذا يُسمُّون هذا السجن بالمسجد؟"

صمت محمد قليلًا، نظرتْ لي عيناه الظاهرتان من قناعه، أدار لي ظهره وقال بصوته المتعب:

- "لأنهم يُجبروننا على السجود في اتجاهٍ واحدٍ... كما ترى على الأرض، بالمناسبة... أنا لا أكشفُ وجهي، لأنك لن تتحملَ رؤيته، صوتي المبحوح هذا... من أثر الصراخ الدائم، لا أقصدُ إخافتك.. أنا فقط أُحذرك".

فهمتُ ما عناه، التعذيب... التشويه... الـ.. الجحيم، أنا في الجحيم بعدما كنتُ مطمئنًا في بيتي أحلم بالكوابيس وأقاسي مرارة واقعي وحسب، لأهنأ بوجهي.. قبل أن

يأخـذوه منـي كـما فعلـوا مـع محمـد، وبكيـتُ.. دفنـتُ وجهـي بـين كفـيّ وأطلقـتُ لدموعـي العِنـان، هنـا وجـدتُ مـن يدفعنـي بشـدةٍ.. رفعـتُ رأسي ناظـرًا إليـه لألقـى الصفعة تنهـالُ عـلى خـدِّي، كان هـذا غانـدي.. مُغتاظًـا حانقًـا يهتـفُ بلغتـه الغجريـة:

- "يـا جبـان... أنـت جيـت هنـا عشـان قضيـة... اسـتحمل زيِّ الرجالـة"!

صرخـتُ مـن فـوري باعـدًا إيـاه بيـدي.. كفـاني صفعًـا وضربًـا اليـوم

- "أنا هنا بلا سبب... أخبرتك بهذا".

- "مفيـش حـدّ هنـا مـن غيـر سـبب... أنـت ليـك قضيـة وكلهـا كام سـاعة ويحققـوا معـاك، يمكـن تتعـذب ويشـوّهوك زيّ محمـد، ويمكـن تتحبـس هنـا للأبـد زيّ حالاتـي.. أنـا هنـا مـن ٣٠ سـنة، وإنـت مـش مسـتحمل قلـم علـى وشـك".

ونظرتُ له مذهولًا، ثلاثون عامًا في هذا السجن، لماذا؟!

- "لمـاذا حبسـوك هنـا ثلاثيـن سـنةً؟!.. ولمـاذا شـوَّهوك يـا محمد وعذَّبـوك؟!"

صمتٌ دام للحظات، بعدها تكلم محمد:

ـ "برأيـك.. لمـاذا حبسـوا وعذَّبـوا الملاييـن غيرنـا فـي تاريـخ هـذا العالـم الحزيـن؟! اختـلاف وجهـات النظـر يـا صديقـي.. أنـا أظـنُّ شـيئًا وهـم يظنـون غيـره، وتتصـادم الإرادات.. إرادتهـم أكبـر، حبسـوني ظنًّـا أن فكـري جريمـة".

ـ "وهل الفكر جريمة؟!"

ـ "حيـن يتخطـى حاجـز الفكـر، حيـن يصيـر دمًـا وحركـةً وتهديـداتٍ... وفـي الأغلـب سـيصيرُ، بينـي وبينـك.. لـو كنـتُ أنـا الأقـوى، لفعلـتُ هـذا بهـم!"

أومأتُ له بدهشةٍ... تفعل مثلهم؟! أجاب باسمًا:

ـ "لا تسـتغرب، حيـن يهزمنـي أخـي الصغيـر فـي التشـاتورانجا[1] وأعجـز عـن ردِّ الهزيمـة... مـاذا تحسـبني أفعـل؟ أُوسـعه ضربًـا! هكـذا الدنيـا.. وهكـذا البشـر، والفكـر... أمضـى سـلاح".

ـ "لكنـي احتفظـت بفكـري لنفسـي... كنـتُ فقـط.. أتجنَّـب الآخريـن، أبتعـدُ عـن السياسـة والديـن وكل شـيء، أخبرونـي أنتـم عـن الديـن.. أخبرنـي أنـت عـن السياسـة".

---

(١) التشاتورنجا : الجد الأصلي للعبة الشطرنج.

ـ "السياسة نجاسة!"

ردَّ غاندي ساخرًا، ثم أردف:

ـ "السياسة بقت مجرد وسيلة لإخضاع الناس للسلطة، تنويمهم... تليينهم... تعتيم نظرهم، يعني حاجة أبيحة مش أكتر، أنا من الناس اللي حاولت ترجَّع السياسة لمعناها، ساس يسوس... شيء هدفه سعادة الناس، عشت مع أقل الناس في المستوى.. عرفت أفكارهم وتكلمت بلغتهم، كانت النتيجة أني جيت المكان الجميل ده، و فهِّموني فيه إن السياسة برضه منها السايس... السايس اللي بيتعامل مع الخيول، بمعنى إن الناس خيول هايجة... والسايس بيروّضها لحسابه، وأنا مش عاوز أقتنع وأديني هنا لغاية ما يقنعوني! قول لنا بقى يا عم محمد... الدين يبقى إيه؟!"

ضحك محمد بصوتٍ خفيضٍ، وقال:

ـ "الدين ؟... الدين تدخين! سجعٌ آخر من أجلك يا إيساف، الدين هو نوعك المفضل من التبغ، كل منا يُدخن كما يُحب أو كما ينصحه كاهنه، أين الدين الصحيح؟ بحثتُ عنه حتى أجده وأظنني فعلتُ، حاولتُ إرشاد الناس... نصحَهم، مساعدتهم واختصار

السكة من أجلهم، لكنهم لم يسمحوا لي، فكري ضد فكرهم، لهذا أنا هنا ولهذا صرتُ أُخفي وجهي عن الآخرين، بعدما فعلوا بي ما فعلوا، إيساف.. أنت مثلنا.. حتمًا مثلنا".

تبًّا.. تبًّا وسحقًا لي وللمجتمع، تبًّا للصديق والحبيبة ولكلِّ ما كان في عالمي وقادني إلى هنا، وعدتُ إلى بكائي، أذرفُ الدموع في صمتٍ، اقترب مني محمد ورَبتَ على كتفي:

- "اهدأ.. الإله قادر على إنقاذك".

- "لا... لن يحدث".

- "لا تقل هذا"!

- "كيف يُنقذني الإله وأنا العاصي المرتاب بشأن أوامره ونواهيه؟!"

- "انتظر هنا... ماذا تقصد بكلامك؟"

- "لو كان لي جريمة، فهي أنني لستُ جديرًا بمعرفتي بالإله.. لستُ خليقًا بمكاني في عاصمة البلاد".

أمسك محمد بمنكبي، وقال في حزمٍ:

ـ "إيساف... أنا هنا من أجل دين الإله، احكْ لي يا صديقي، احكْ لي ولغاندي، سنستمعُ إليك ونفيدك، عسى أن ننقذك قبل التحقيق فتنجو من مصير أسوأ ينتظرك، فضفض... قُل كلَّ ما تريد.. ربما تتذكر شيئًا ينفعك، ربما تعودُ لصوابك وتُدرك خطيئتك، تتوبُ عنها فيتوبُ عليك الإله ويُغيثك".

نكَّستُ رأسي في يأسٍ، قلتُ شاعرًا بقلة حيلتي:

ـ "حياتي ليست شيئًا، محض عُقد بلهاء وأفكار غريبة وأحلام تتكرَّر كل ليلة".

هنا سمعتُ غاندي يهتف:

ـ "أحلام؟... بتقول أحلام؟! محمد ليه في تفسير الأحلام... محمد بيفسَّر أحلامي وأحلام المساجين والحرَّاس كمان بكل دقة، احكيله... صدّقني محدّش زيه هيوصَّلك للحقيقة".

نظرت لهما، ربما تكون الفرصة الأخيرة لي لأحكي لشخص ما..أحكي ما يعتمل بداخلي منذ زمن بعيد.

***

سأحكي.. سأحكي لكم، سأحكي عن إيساف برصيصة، الطالب المتخبط، التائه، الحائر بين كل شيء وأي شيء، منذ نعومة أظفاري، منذ عرفتُ كيف أفرِّق بين الألوان، احترتُ كثيرًا... أيَّ لونٍ أجمل...أيَّ لونٍ أختار... لا أدري، الأزرق خلَّاب.. الأحمر بديع.. الأصفر جميل، لا أعرف أي شيء يُعجبني أكثر، صدِّقوني إنه لشيءٌ مؤلمٌ أكثر مما تظنون وفي نفس الوقت غريب موحش، مثل سكين متعرِّجِ النَّصل قبيحِ الشكل يشقُّ لحمك، دعوني أنا أكلمكم عن الدين والسياسة، لن تجدوا عندي شيئًا يُقال! هذا العالم يعجُّ بالأفكار، النظرياتِ والآراء، في السياسة والدين وكل شيءٍ آخر، أين الحقيقة.. أيَّ طرفٍ هو الصحيح؟

وُلدت في العاهرة، مدينة الألف عاهرةٍ، عاصمة البلاد المباركة، يحميها دبُّ الإله.. شعارُها الذي يتوسط أعلامَها المرفرفة أبدًا، عرفتُ فيها كل شيء مبكرًا، رأيتُ النساء أمامي في كلِّ مكانٍ، في الشوارع ودور العبادة، استشعرت وقدة الجسد بداخلي منذ حداثتي، لم أفهم... وجدتُني حائرًا أكثر من كوني راضيًا أو مستاءً، كنتُ كذلك وما زلت، بخلاف كل الناس السعيدة المنطلقة بسليقتها.

هذه كانت البداية... بداية اختلافي عن الرَّكب، هل ينبغي أن نكونَ هكذا كما خلقنا الإله دون ساتر؟ بالطبع..

لكـن لمـاذا فعلـت بي الأجسـادُ العاريـةُ مـا فعلـت؟ كنـتُ أراها في كلِّ مـكانٍ وكل وقـتٍ، أليسـت هـذه هـي الفطـرة؟ طبعًـا هـي الفطـرة والسـليقة السـليمة، ولأننـا الآن عرايـا كـما ولدتنا أمهاتنـا... إلا مـن قناعـك يـا محمـد...

يبدو كلامي هذا غريبًا.. أليس كذلك؟!!!!

***

النِّسَـاءُ بالـذاتِ.. عَرايـا في الشـوارعِ والمسـارحِ بـلا قـماشٍ أو جلـدٍ يسـترُهم ، كل شيء مكشـوفٌ وواضـحٌ، يُثـير مـا يُثـير ويُحـرِّكُ مـا يُحـرِّكُ، هكـذا وجـدتُ حيـاتي ومدينتـي العاهـرة.. أيـن كان الديـنُ مـن هـذا كلـه؟ كانـت المفاجـأةُ أنـني وجـدتُ الديـنَ عندنـا هـو مـن يأمرُنـا بذلـك! وليـت الأمـرَ اقتـصر عـلى الأجسـادِ العاريـةِ المُغريـةِ فقـط!

***

- ٤ -

يقول كاهنُ العَاهِرَة الأعظم في كلِّ مرةٍ:

- "خلق الإلهُ الإنسانَ عظامًا ولحمًا وجلدًا، كما خلق الطيور بريشها، والأنعام بوَبرها وشَعرها، والأشجار بلحائها، فهل أضاف شيئًا آخر إلى أجساد مخلوقاته؟! لم يفعل.. ولذا فنحن مُحرَّمٌ علينا أن نُغطي خلق الإله بأيِّ شكلٍ، علينا العيش بأمر الإله وحكمته".

- "ومن أجل الزينة فقط، يُسمح لنا بدهن أجسادنا بألوانٍ مختلفةٍ، هكذا نكتسبُ المشهد الجميل اللائق ولا نُداري خلق الإله".

***

يقولون إن طفلًا واحدًا مثلي يُولد كلَّ مائة عامٍ، طفلٌ ينفرُ من الفطرة والأخلاق ويمقتهما، الفطرةُ في العُري

والتجرد مما يُغطي الجسد، هؤلاء الذين يتغطُّون ويُوارون خُلق إلههم هم المتنطعون المتبخترون، هكذا تعلمتُ واعتدت، فما لي لا أُريح عقلي النابض بكلِّ شكٍّ وارتيابٍ؟ وُلدتُ هكذا ورأيتهم عرايا حولي وأَلِفت مشهدهم.. لا شك أن هذا هو الحق.. فأين الخطأ؟ دعوني أبدأ معكم منذ البداية... منذ وعيتُ على الدنيا وعرفتُها شيئًا فشيئًا.

كما تعرفون.. اهتمَّت العاهرةُ بالدِّين أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، أكثر حتى من (إبيقوريا) و(مزدكيا) و(فرويديا) و(بومبي)، ما زلت أذكر اللوحات الدينية المعلقة في كلِّ مكان، التماثيل والمنحوتات بكل أشكالها، كلها عاريةٌ مُوغلةٌ في الفطرة، عرفتها قبل أن أنطقَ أول كلمةٍ، لم يدَّخر أبي وأمي جهدهما في تربيتي وتوعيتي، كانوا في غاية التقوى، ساهم كل هذا في نشأتي ليجعلني أكثر شكًّا وارتيابًا! ما زلت أذكر اليوم الأول الذي ذهبتُ فيه للتعبد معهم، كنتُ طفلًا فلم يُسمح لي سوى بالنظر والسمع، النظرِ إلى المتعبدين في الكرخانات والمواخير، وسماع أصوات المنتشين والمنتشيات.

***

ألا يقول الكاهن بنفسه...

ـ "أمرنا الإله أن نتعبد له بما يُفرحنا ويُمتعنا ويُريحنا، إنها حكمته الجليلة العظيمة لسعادة خلقه، عبادتنا كلها لذةٌ ومتعةٌ وتسليةٌ، عبادتنا هي أحلى ما في هذه الدنيا، نشتركُ فيها رجالًا ونساءً وصولًا للغاية العظيمة واللذة الحريفة، هذا هو طقسنا المقدس، تداخل بالروح والجسد بين العابدين".

ـ "ولتعظيم شأن هذه العبادة، على المرأة أن تُغطي شعرَها وحسب، ولا تكشفه سوى أثناء العبادة، فلتذكر العابدات التقيات دومًا هذا الفرض اللازم".

ـ "وعلى الرجال كذلك أن يحلقوا ذقونهم وشَعر أجسادهم بالكامل، حتى يصيرَ الطقسُ أكثر سلاسةً، هذا فرضٌ آخر لا يجب أن ينساه العابد التقي".

***

كانت الكرخانة بجانب بيتنا تمامًا، فكان الذهابُ إليها طقسًا يوميًّا لوالديَّ، أما الماخور الكبير فكنا نزوره يوميْ الجمعة والأحد حيث يُقام التجمُّع المُقدس بين كلِّ المتعبدين، نظرتُ كثيرًا حتى اتَّسعت عيناي، كلَّت أذناي جرَّاء هتاف العابدين ورفيقاتهم، في الكرخانة حيث

ينفـردُ كل متعبـدٍ ومتعبـدةٍ في غرفـةٍ واحـدةٍ، يتطلـع إليهـم الأطفـال مثـلي في نهـمٍ، نريـد أن نفعـل مثلهـم.. حتـمًا نريـد، لكـن الديـن هـو الديـن، لـن يُسـمحَ لنا بالاشـتراك في الطقـس المقـدَّس سوى بعـد النضـجِ الـكافي حـين نقدر عـلى إنتـاج الماء الأبيـض الطاهـر، عندهـا نـشربُ الخمـر المقـدَّس ليُعيننَـا عـلى الانخـراط في العبـادة، أمـا قبـل ذلـك فمـن يُحـاول فعـل هـذا فـمأواه جحيـم الخطـاة وبئـس المصـير، كنـا جميعًـا نسـتعر في وقفتنـا نتأمـل العبـادة، يفصلـون بـين الأطفـال الذكـور ومثيلاتهـم الإنـاث تجنبًـا لأي تجـاوزٍ.

لم أفهـم وقتهـا شـيئًا!.. لكنـي أدركـتُ الحقيقـة فيـما بعـد، كل الأجسـاد العاريـة الملطخـة بالألـوان هـي محـضُ تشـويقٍ وجـذبٍ للعابديـن والعابـدات! حتـى يُقبلـوا عـلى الطقـس المُقـدَّس بـكلِّ حـبٍّ ولهفـةٍ! يمنعـون الأطفـال عـن فعلـه لـكي تكـون المرةُ الأولى لهـم أمتـع وأعظـم مـا يكـون، تخيَّلـوا تشـويقًا لسـنواتٍ طويـلاااااتٍ، هكـذا يكـونُ التشـويق... هكـذا تكـون العبـادة!

***

ويُنهي الكاهن خطبته موصيًا:

ـ "والآن فلنبدأ التعبد معًا يا أبنائي، ولو ترك العابدُ منكم رفيقته دون اكتفاءٍ، أو فعلت هي ذلك، فليحتسب المتروك أجره منكم عند الإله، هكذا عبادة الأتقياء أيها الأحباء"!

***

-٥-

بالنسبة لطفلٍ مثلي يُشاهد العبادة يوميًّا.. اعتدتُ الأمرَ في النهاية، لم تعد تضاريسُ الأجساد في الشارع تُؤذيني، وصار الطقسُ المقدَّسُ مُملًّا إلا لو حاول طرفاه التجديد الصعب في كلِّ مرةٍ، كان هناك شيءٌ آخر يجذبني كل الجذب وأنا طفلٌ، الفن.. الجمال.. الإبداع بكلِّ شكلٍ ولونٍ؛ إبداع الإله أو إبداع الإنسان، دخلتُ المدرسة طفلًا لا أفقه شيئًا، هناك تعلمتُ وأحببتُ الفن، الرسم والنحت والقراءة والكتابة، والتمثيلُ الذي لم أتقنه... لكنني أحببتُه وعشقته.

هناك عرفتُ أيضًا شيئًا بديعًا يُسمى (الصداقة)، حين قابلت (برو يهوه) للمرة الأولى، كان وسيمًا مشهورًا بين الزملاء رغم اسمه الثقيل على اللسان، أنيق هو.. يُحسن اختيار ألوان الدهانات ويُكثر زيارة (المراسم) حيث يرسم

أشـكالًا وزخـارف جذابـةً عـلى سـائر جسـده، يُجيـد التمثيـل بشـدةٍ في مـسرح المدرسـة، تعرَّفتـه إذ جاورني في مقعـد الصفِّ، نفـر منـي بدايـة لكنـه هـام بي فيـما بعـد، راقـه عقـلي الراجـح وعشـقي للفنـون، في حصَّـة الحسـاب والأشـكالِ كنـتُ الأول دائمًـا بينـما احتـل هـو الصـدارة في حصـة التمثيـل، وكنـتُ بخلافـه منفـردًا بنفـسي في الغالـب عـن الآخريـن... إلَّا عنـه، حتـى تعجَّـب المدرِّسـون والرِّفـاق مـن هـذه الصداقـة غـير المتكافئـة، مـا زال بـرو صديقـي إلى اليـوم.. إلى حـدٍّ مـا.

تعرَّفـت أمـورًا كثـيرةً مـع بـرو، مـا زلـت أذكـرُ اليـوم الـذي سـألني فيـه بغمـوضٍ وكان يدهـنُ جسـده بـالأزرق الخفيـف:

- "إيساف.. أتعلمُ كيف جئنا لهذا العالم؟"

أجبته بتلقائيةٍ:

- "مِن بُطونِ أمهاتِنا!"

- "يـا أحمـق.. أعنـي كيـف تكبـر بطـون النسـاء هكـذا ويخلقنـا فيهـا الإلـه؟"

- "حين يشاء الإله!"

- "لقد شاء لك الإله أن تكونَ أحمق الناس!"

كيـف لي أن أدري مـا قصـده، النسـاء تلـدُ لدينـا في كلِّ وقـتٍ حـين تقـدرُ عـلى ذلـك، لكـن لحظـة.. لاحظـت شـيئًا مـا:

ـ "أتقصد حين يرضى عنها الإله ويجعلها تتعبد له؟"

ـ "أخيرًا... يا لعقلك الذي أتلفه الإحصاء، لكن السرَّ ليس في العبادة نفسها، بل ما ينتج خلالها".

ـ "تعني لذة العبادة التي يمنحها لنا الرب؟"

ـ "بعيدًا عن اللذة يا ذكي... أنا أقصدُ الشيء الملموس".

ـ "الماء؟.. الماء المقدس!"

هكذا عرفتُ كيف نُولد، ليس محض العيش بين رجلٍ وامرأةٍ في مكانٍ واحدٍ هو ما يُنتج الإنسان، كان أبي وأمي لا يتعبدان أبدًا في البيت، إذن فمن هو أبي الحقيقي من كلِّ عناتيل الكرخانات! وعجبت من حالي... لا أعرفُ لي أبًا!

***

وفي المدرسة عرفتُ شيئًا آخر قد يكونُ أجمل من الصداقة، شيئًا يُسمونه الحب، أحببتُ زميلتي (إيرما) كثيرًا، ظنَّ برو وغيره أن جسدها الناضج قد راقني لتكون رفيقتي في دور العبادة فيما بعد، لكنني في الحقيقة لم أفكر في هذا أبدًا..

ـ "أومَّال حبيتها ليه يا نجم؟!"

سأُجيبك يا غاندي... أحببتها لوجهها الجميل، لروحِها الوثَّابة المرحة، ربما لشعرِها الضافي المسترسل، لم أنظر لباقي جسدها أبدًا... جسدها العاري طبعًا كما تعرفون، بيد أن إيرما نفرت مني ومن الجميع، ظلت غارقةً في النصوص المقدسة، تقرأها في كل وقتٍ ولا تُصادق أيًّا منا.

قالوا إنها تسعى لتنفيذ وصية النبي (إبيقور)، هي جميلةٌ بالفعل وينقصها المحاولة فقط لتحوزَ لقب عاهرة الإله وليس مجرد إحدى محظيَّاته كما نُسمي الجميلات، لم أكن بالطبع من المحظيين الرجال؛ فلم أكن وسيمًا أو قويًّا مفتول العضلات، لهذا لن أحظى بلقب العنتيل، لكن وصية النبي الخاتم كانت واضحةً، من يفعل الطقس المقدسَ مع القبيح ثوابه أعلى، هكذا قد ألتقي مع إيرما يومًا ما في طقسٍ واحدٍ يجمعُنا.

- "وهل انتهت قصتك مع إيرما إلى هذا الحدِّ؟"

- "بالعكس يا محمد... لا أظنها بدأت بعدُ"

***

-٦-

- "إيرما... هل لي أن أكلمك؟!"

بالفعل.. قرَّرت أن أكلمها، سأخرج من عزلتي وأواجهها بمأربي، أنا أحبها، أطهر حبٍّ ممكنٍ و... أطهر حب؟!.. متأكد يا أنا؟ كنا في الصف عقب حصة الفيزيقا، أبغي الظهور في أفضل حالاتي، دهنتُ جسدي بلونٍ فِضي جذَّاب، فيما دهنتْ جسدَها بالأبيض كالعادة، ردَّتْ سؤالي بهدوء:

- "أنت تُكلمني بالفعل.. أخبرني ماذا تُريد بالضبط؟"

تلجلجتُ في كلماتي، لم أكنْ أُجيد الكلام مع الفتيان فما بالك بالفتيات، لاحظتْ هي تلعثُمي واهتزازي فصرَّحتْ مباشرةً:

ـ "و بعـد... ألا تكفيـك نظراتُـك طيلـة الليـل والنهـار..
أخبرنـي الآن مـاذا تبغـي وإلا فاذهـب".

ـ "أنا أحبك!"

سمعتُ شهقةً سريعةً ثم..

ـ "كلاش!"

يدُهـا قاسـيةٌ فعـلًا عـلى خـدِّي! التفـتَ نحوهـا كلُّ التلاميـذ.

ـ "كيف تجرؤ؟!"

أسرعتُ بالدفاع عن نفسي مُتحسسًا موضعَ صفعتِها:

ـ "لم أخطئ في شيءٍ... قلتُ إنني أحبك فقط!"

ـ "لم تُخطئ... لم تُخطئ؟!!!"

وتجمهـر الطلبـةُ حولنـا، كنـا في مركـز الدائـرة نتبـادل النظـراتِ ينظـر إلينـا الجميعُ، عـلى صـوت إيرمـا أكـثر حتـى بلـغ الـصراخ:

ـ "يقـول إنـه لـم يُخطـئ، ذاك الفاجـرُ يقـول إنـه يُحبنـي قبـل سـن البلـوغ!!"

سرَت همهـماتٌ غاضبـةٌ مـن الجمـع حولنـا، يرشـقونني بنظراتهـم المغتاظـة:

- "وقح"

- "قذر"

- "مُنحلٌّ"

- "وضيع"

- "لماذا لا تطلب منها الخمر كذلك!"

- "أنا لم أقصد الطقس المقـــ..."

لكنـي لم أكمـل جملتـي إذ عاجلتنـي اللكمـة الأولى وتبعهـا أخواتُهـا في أنحـاء وجهـي... تطـوَّع الـكلُّ لتغيـير المُنكـر بيديْـه.

- "يعني دي كانت أول علقة يا شقيق.. هع هع هع!"

أخرجنـي غانـدي مـن خواطـري... ابتسـمنا جميعًـا وذهب محمـد ليقـضي حاجتـه ثـم عاد:

- "أكمل... أكمل يا صديقي ما حدث مع إيرما"

لم يحــدث يــا محمــد، فهمتنــي بشــكلٍ خاطــئٍ وظنَّــت مرامـي جسـدَها، لكنـي... كنـتُ طفـلًا، لم أطمـح في أكـثر مـن ابتسـامةٍ منهـا وتبـادل الكلـمات اللطيفـة، نعـم كنـتُ طفـلًا.. حتـى حـين.

***

-٧-

فقد كَبرْتُ.. وزاد استعارُ الجسدِ واستفحل، لم يزددْ مع المعتاد من المناظر العارية... بل العكس، تلك الفاجراتُ ممن توارين بالحُجب والقماش، نسميهن القماشيَّات، يتجاهلن أوامرَ الدين والإله في الشوارع والطرقات، كثيراتٌ هن في الواقع، وفي الخيال أكثر... خيالُ الفن والفنانين، قماشهن الشفيفُ الضاغط... يفعل بيَ الأفاعيل، حتى في وجود العاريات بالكامل؟! بالطبع.. وإلا ما استغلَّ الفنانون ذلك ليجذبونا! أخبرتكم أنني أعشقُ الفن، لكن الفن يغصُّ بهم بكل أنواعه، بدأت بالتمثيل، معي صديقي المحترف.

كما تعرفون.. المسارحُ المتنقلةُ هي وسيلةُ انتشار الفن الأولى، والعاهرة تعجُّ بها، تُقدم المسارح عروضًا لا تنتهي طيلة اليوم في برنامجٍ ثابتٍ، يُقام العرضُ بحيث يراه كلُّ

أهل المنزل من نافذةٍ مخصصةٍ له، نتعرَّف عبره الثقافات الأخرى، نتعلم منه الكثير، نرى الشخصية المشهورة يستضيفها المسرحُ ويُحادثها ممثلٌ مخصصٌ يُسمونه المحاور، والأهم من هذا، نرى الرواياتِ المؤلفةَ ممثلةً أمامنا، يُعد البنَّاءون والحرفيون كل شيء لتبدو الروايةُ حقيقيةً، صورٌ مرسومةٌ بدقةٍ في خلفية القِصة.. مؤثراتٌ صوتيةٌ بحناجر ممثلين صوتيين، يحتشدُ فنُّ التأليف والرسم والتمثيل والموسيقى المعزوفة في مزيجٍ رائعٍ على خشبة المسرح، يشرف على هذا كله الناقل الذي سمُّوه هكذا لأنه ينقلُ لنا رؤيته كاملةً عبر روايته الممسرحة.

كان المسرحُ جزءًا لا يتجزَّأ من يوم كل عائلة، ويُسمح لنا فيه بالنظر عبر المقراب لنقتربَ من الممثل البعيد، عشتُ فيه مع الممثلين والأهم... الممثلات، اقتربت منهم ورأيت تفاصيلهم الناضجة عبر مقرابي، ويزدادُ لهيبُ دواخلي يومًا بعد يومٍ، كانت العروضُ المخصصةُ للكبار هي التي تجذبُ انتباهي، ففيها أرى الأجساد خلف القماش أكثر.. أكثر إثارةً بالطبع، هاته الفاجرات الوضيعات.

لم يؤثر فيَّ شيءٌ كما فعل المسرح، بممثلاته وتضاريسهن، بعروض الكبار الخاطفة لعقلي الغضِّ، هكذا صارت تفاصيلُ الأجساد الناعمة حولي تجذبني أكثر وأكثر في

الشـارع، لم أعـد طفـلًا أنتظـرُ كلمـة حـبٍّ مـن حبيبتـي، بـل صـار كل همِّـي هـو ذاك اللحـم اللـدن البـضُّ، وأحمـى بـرو صديقـي مـن نـار جذوتي، يحـكي لي خفايـا عمله مـع الممثلات، دعـاني يومًـا لحضـور عـرضٍ مسرحـيٍّ في مـسرح العاهـرة العظيـم المُسـمى (مـسرح عُهـر)، وفيـه يحـضرُ العـرضَ آلافُ المشـاهدين مـع المِقـراب، كان العـرضُ بعنـوان: (قـذارة روح).

وفيـه كانـت البطلـةُ تُمثلهـا فتـاةٌ شـديدةُ الإغـراء بقـماشٍ ثقيـلٍ يُطلقـون عليـه اسـم (ملابـس)، يحـكي العـرضُ كيـف عاشـت تلـك البطلـةُ تُخالـف الإلـه وتُغطـي أنحـاء جسـدها، كيـف دعـا هـذا الفتـى الصغـير- وقـام بـرو بـدوره- الـذي لم يشـب عـن الطـوق بعـد أن يميـل إليهـا ويـضرب بالنصـوص المقدسـة عـرض الحائـط، حتـى كاد أن يفعـل معهـا الطقـس المُقـدس، لكنهـا في النهايـة نهرتـه وخلعـت (ملابسـها) وعـادت لتُـمارس العبـادة الحقَّـة في الكرخانـات حتـى صـارَ لهـا كرخانة مُخصصـة لهـا يقصدهـا العابـدون مـن أقـاصي البلـدان، ونالـت لقـب العاهـرة عـن جـدارةٍ واسـتحقاقٍ و.. تصفيـقٍ.. تصفيـقٍ حـاد يصـم الآذان مـن جهـة المشـاهدين، شـخص واحـد فقـط لم تتحـرك يـداه قيـد أنملـة ليصفـق.

- "وإيرمـا حضـرت معـاك العـرض وبوسـتها ولا لأ يـا موكـوس؟"

سألني غاندي ساخرًا:

لم يحـدث يـا غانـدي... فالواقـع أن مـا حـدث معهـا لم يـدُر ببــالي قط.

ـ "طب ما تقول يا عم... مستنِّي إيه؟"

-٨-

سأخبرك أولًا يا غاندي عن حالي خلال السنين التالية في مرحلة الصبا، تُذكي فيها الفنونُ نار شهواتي الدفينة المحاصرة بسورٍ اسمه النصوص المُقدسة، لم أفكر أبدًا في تخطيها، كنتُ أخشى عاقبة الذنوب وما بعدها، فيومًا ما سيضعف جسدي ويرق عظمي لأودِّع الدنيا، أو يُصيبني المرض فجأةً ليزهق روحي، وحينها لن ألقى سوى العذاب وحده، حين يأتيني المُميتون ليأخذوني.

هكذا الموتُ في العاهرة.. يكون بأيدي المميتين، يأتون في أيِّ وقت، مهمتهم دفنُ الموتى، يرتدون ريشًا أسود ويضعون أقنعةً بمناقيرَ طويلةٍ كالغربان، هم من يُحدِّدون من يموت، كبار السن أول المُعرَّضين لهم، وحين يمرضُ أحدُهم يأتيه المُميتون ويُقررون أيبقى إلى أن يشفى أو يموت فورًا بأيديهم، وقد يختارون صغار السن ليموتوا،

يُسمونهم المحظوظين، لأنهم لن يشهدوا الأمراض المؤلمة أو ضعف الشيخوخة، أو موت أحبابهم قبلهم.

كان منظرُ المميتين دومًا أمام البيوت لرصد الموتى يُفزعني، أنا أخاف الموت حقًّا، وكثيرًا ما تساءلت: كيف يكون الموت على هوى بشرٍ يموتون أيضًا؟! كيف يرضى الإله بهذا في دينه؟ لكنني لم أصدح بهذا التساؤل سوى في عقلي!

أعرفُ أنني لستُ مُغامرًا بطبعي.. أخشى محاربة الأشخاص قبل النصوص، لذا لن أعلن أفكاري لمرة، ولن أتعجَّل في تنفيذ الطقس، انتظرت فرجًا قريبًا بنضجي، حتى أنفذ نصيحة نبينا الخاتم (عزازيل) بأن كل قطرة من الماء المقدس في التعبد يُقابلها سبعون ألف مجنحٍ يستغفرون لصاحب الماء.



-٩-

وظللتُ على شوقِي، حتى روى مائي فخذي يومًا بينما أحلمُ بنفسي بين أحضان إيرما الجميلة، صحوتُ لأجدَ القطَّ هناك يغفو بفرائه الوثير، أخبرتُ أمي صباح ذلك اليوم فكانت فرحتُها عظيمةً، احتضنتني بشدةٍ وبكت، أخبرتني أنني أخيرًا سأصيرُ عابدًا تقيًّا، وقد أسعى لأكون عنتيلًا باجتهادي دون الوسامة! من الآن فصاعدًا لن يخرجَ مائي إلا في العبادة، أخذتني في اعتزازٍ للماخور ليتم تعميدي مع بالغي الشرف أمثالي، هذه مرَّتنا الأولى وسيحضرها الجميع.

جميعُ الكهنةِ والعناتيلُ الأتقياءُ ينتظرون ليشهدوا أداءنا المُشرف بعد سنواتٍ من النظر والتمعن و- الأهم- الاشتياق، أجسادُنا ناعمةٌ حليقةٌ بالكامل تلمع كجلود العذارى كما علَّمنا النبي الخاتم، من الأعلى يتطلعُ إلينا

الأطفال جائعين للحظة اللقاء كما كنا نفعل سابقًا، وقفنا نحن الشباب صفًّا، وبعيدًا أمام كل شاب فتاته الناضجة القادرة على استقبال الماء، بلا دهاناتٍ على جسدها وإنما الجلد الطبيعي اللامع، يُغطي شَعرها الحجابُ الذي ستنزعه لأول مرةٍ، ويُداري وجهَها لثامٌ ليزيحه الفتى منا فيرى فتاته ويسعد بها.

قبل هذا يمرُّ الكاهنُ الأعظمُ ليمنحنا بركته ويُقدم لنا شربةَ الخمر الأولى، يُناول الشباب أوراقًا مصفرةً تحتوي النشيد الذي تاق كلٌّ منا لمعرفة ما به ولقوله أمام محظيته... لو كانت محظيةً، النشيدُ البديعُ ذو الكلمات العذبة التي تُقال للفتاة فتُدير رأسَها وتُلقي نفسَها في أحضانك فورًا ساعيةً للتقرب منك، الشوقُ يحتشدُ، يكادُ يفيضُ منا ليُغرق الماخور، عشتم هذه اللحظات حتمًا يا محمد ويا غاندي...

- "أومَّال؟!... هوَّ فيه أحلى من كده... قول قول وسمَّعني... أنت مؤدب كده ليه؟!"

صبرًا يا غاندي، فأنت لم ترَ الأدب بعد، ناولني الكاهن ورقتي، كنت مشغولًا عنه بالنظر لفتاتي من بعيدٍ، أمنِّي نفسي باللحظات القادمة، لكنه أعطانيها في تفهمٍ، لا شك أن كلَّ الشباب مثلي الآن، وكانوا وسيظلون مثلي، حين

انتهى الكاهنُ أمر بأن يقتربَ كل فتاةٍ وفتى.. وأن يبدأ الرجال بالإنشاد، بدأتُ أُنشد بكلِّ ما فيَّ من مشاعر.. نشيد الإرشاد، الذي يُرشد العابدين والعابدات..

وأنشدتُ..

يا لجمال قدميْك أيا عاهرةَ الإله!

كالمرمرِ والعقيقِ الأحمر.. غاب عقلي!

لكمْ أحسِدُ القَّماشة على وجهك.

والهواء يُحيط بك.. أغبطه وأرجوه.

ما أجملك، وما أحلاك أيتها الحبيبة!

كفلقةِ رمَّانة خدك تحت قماشتك.

حبيبتي بيضاء سمراء أو قمحية.

يكفيني الملمسُ الواحدُ والمكمن ذاته.

لا أحلى من عناق أجزائك.

لا لذة تفوقُ ما أنتظره منك.

كلك جميلٌ أيَا عاهرتي.

ليس فيك عيبة.

لم يخلق شيء فيك.

كما خُلق لي وحدي.

لم أعرف حياةً ولن أعرفها.

قبل أن ألتقيك أيَا حياتي.

من أجلك انتظرتُ السنين.

حرمتُ نفسي.

أشحذ همَّتي وأقوِّي عزمي.

وأزيد لك شوقي وولهي.

سأجعلك سعيدةً كلَّ السَّعد.

فيك ذُبتُ وذاب كأسي.

فبات كأسي أنت ومأكلي.

وأنشدتُ المزيدَ والمزيدَ، تغزَّلت صراحةً في عاهرتي ومفاتنها بكلماتٍ واضحةٍ تصفُ كلَّ جزءٍ منها، وفعلت بيَ الكلماتُ ما فعلتْ، بلغت الشعلة أوجَهَا، بلغ الخمرُ مرامَه، أكادُ أفيضُ قبل اللقاء... فلنلتقِ.. فلنلتقِ!، وانتهى النشيدُ، وظل الشباب كالوتر المشدود على سهمه، لمسة واحدة ويطير بلا عودةٍ و.. و.. أشار الكاهن، وهرع كلُّ بالغٍ لبالغتهِ، لينالوا الشرف واللذة، أزاح كل البالغين اللثامَ

والحجـابَ وانخرطـوا فيـما انتظـروه، أنـا أيضًـا أزحـتُ لثامهَـا و... وشُـلت يـدي قبـل لسـاني، وطـار صـوابي قبـل كلـماتي..

- "كانت... كانت هي!"

- "بلى يا محمد... بعينها.. إيرما.. إيرما العاهرة"

***

-١٠-

طالـت اللحظـاتُ.. تجـري بينـي وبينهـا، يهتـزُّ فمـي وتتسع عينـي، أُحـدِّق فيها وألاحـظ أثـر الزمـان عليهـا، هـي الآن أشـهى مـن ذي قبـل، لكنـي شـعرتُ بألـف قيـدٍ يُكبلنـي عنهـا، تنـداحُ أصـواتُ العابديـن والعابـدات مـن حـولي في انتشـاءٍ، إيرمـا مصدومـةٌ هـي الأخـرى، نظـرتْ لي طويـلًا دون تعبـيرٍ، لسـانُ حالهـا ينعـى حظهـا ويغتـاظ لحُسـن حظـي، تتنهـد في استسـلامٍ وتُشـير لنفسـها.. لكنـي لا أتحرك، استثقلتْ خُمـودي وبـلادتي، أمسـكتْ بيـدي، فنزعتُهـا كأن يدهـا ذبَّـان العقـرب، ينفـد صبرهـا.. تقـول بإغـراءٍ مُقتضـبٍ:

- "هيَّا.. افعل مثلهم!"

- "......"

النظرةُ المبهوتةُ في عيني، نظرةُ بريء يجرُّونه للمقصلة.

- "تحرَّك يا هذا!"

- "لا"

تتوحشُ إيرما وتجذبُني نحوها.

- "افعل هذا الآن!"

- "لن أفعل"

تتشـبثُ بي في غِـلٍّ.. أدفعُهـا وأذهـبُ، أتـركُ الماخـورَ كلـه، أتـركُ الكاهـنَ والعناتيـل وكلَّ مَـن جـاء يُشـاهد، يرمقونني كأننـي معجـزةٌ خارقـةٌ للعـادة، حتـى العبَّـاد تابعـوني أثنـاء طقسـهم، غطَّـت الدهشـةُ كل شيء، الوحيـدة التـي كادت تحرقنـي بنظراتهـا... تجـزُّ عـلى أسـنانها بـكل غيـظِ الدنيـا، هـي إيرمـا نفسـها، أفسـدتُ طقسَـها المُقـدس الأول، لكنـي رأيتهـا ترمقنـي بتشـفٍّ بـين أحضـان أول مـن وصـل إليهـا مـن المتطوعـين الأتقيـاء، لمـاذا فعلـتُ هـذا... كنـتُ أحبهـا!... فلِـمَ لَـم أفعـل؟!

لم يهتم القومُ بي، بالتأكيد قال لهم الكاهن في حكمةٍ:

- "مِـن بيـن كل مائـة طفـل... يُولـد أحدُهـم خجـولًا أو أبلـه أكثـر مـن الـلازم!"

***

أزمعتُ ألا أطأ دورَ العبادة بقدميَّ بعد هذا الموقف، سنواتٌ عديدةٌ مرَّت بالفعل، كنتُ أتحرَّق فيها شوقًا للتعبد، نيران الجسد تُلهبني، تنفخُ فيها المغرياتُ بكلِّ أصنافها، لماذا لم أفعل وأتعبد؟ ينبغي عليَّ فعل هذا قبل أن أنفجر ولكن... شيءٌ ما تهشَّم بداخلي منذ تلك المرة، أي شيء هذا وهل يُمكن إصلاحه؟

كيف السبيلُ إلى وقف الوغى وإطفاء اللهيب؟ الأجسادُ حولي في كل مكانٍ، عاريةً في الشارع.. مُغرية كل الإغراء.. خاليةً من أي سترٍ، إلا الرؤوس المُغطاة من أجل العبادة! الكرخانة تُناديني بأصوات العبَّاد المنتشية الراضية، والأسوأ من هذا كله، أجساد تغطت بقماشٍ خفيفٍ، يُثير الدواخل و لا يدعُ لها منفذًا، أراها في المسارح، وكثيرًا في الطرقات، تبًّا لهن وتبًّا لإيرما، ماذا أنا بفاعلٍ الآن؟

وشكوتُ لصديقي سوء أحوالي، ينظر إليَّ في ضجرٍ، يُعاتبني ساخرًا، ويشير للأجساد حولنا ويُخبرني أنه أفضل مني، ما من جسدٍ يروقه إلا ويتبع صاحبته حتى دور عبادتها و(يُحبها) هناك، استغلَّ الدين لمصلحتك يا أحمق، الدين تدخين... هذا يُثبت كلامَك نوعًا يا محمد.

لم أستمع لصديقي، لكني وجدتُ نفسي يومًا أمضي إلى الكرخانة بلا واعزٍ، كنتُ أعرفُ أنني لن أقربَ امرأةً، لكني

أريـدُ شـيئًا آخـر، ذهبـتُ في ركـنٍ قَـصِي، معـي مقـرابي، أُحـدِّق في العابديـن والعابـدات، أتأمـل كل حركـةٍ وخلجـةٍ.. أصيـخ السـمعَ لـكلِّ آهـةٍ، كأننـي محـرومٌ مـن كل هـذا! كان لا بـد عندهـا أن أفيـضَ بمـا داخـلي، أصـلُ لـذروتي جـرَّاء المشـاهدة.

- "تقصـد أنـك اسـتعضت عـن الطقـس المقـدَّس بالعـادة المقدسـة؟"

- "بالضبـط.. رغـم أنهـا مسـموحةٌ لنـا فـي السَّـفر فقـط، حيـن لا نسـتطيعُ التعبـد فـي الكرخانـات ولا نجـد النسـاء".

- "ودي تبقى عيشة يا جدع؟!"

- "صدقـتَ يـا غانـدي.. هـي تقليـدٌ أخـرق، لكنـه كان خيـاري الوحيـد"

- "وماذا يُجبرك على هذا يا أحمـ.. معذرة يا إيساف!"

- "لا بـأس يـا محمـد.. قـد يكـون محـض ادِّعـاء.. لكننـي.. أحببـتُ"

- "ها... أحببتَ؟!.. على طريقتك!"

- "بالفعل.. على طريقتي"

***

-١١-

تخطتني السنون يا صاحبي السجن، وأنا كما أنا... أقتصرُ عن العبادة بشبيهٍ سخيفٍ لها، لا يُسمن ولا يُغني من جوعٍ... ربما هي لحظةٌ واحدةٌ فقط وتذهب، بلغتُ مبلغ الشباب تأكلني الرغبة ولا يُطاوعني فؤادي، يصرخُ صديقي برو حانقًا:

- "الإله يُقدم لك الحل وأنت تهجره؟! تخيَّل لو كان الدين يشق الأمر علينا؟ تصوَّر أن العبادة تنأى بنا عن اللذة؟ أكنتَ سترضى وقتها؟.. أحمق أحمق أحمااااااق"

لكني بقيتُ على عهدي الصامت، لا نساء، لا فعل.. فقط مشاهدة وإطفاء قسري بليدٌ لنار الشهوة، كنتُ في حاجةٍ إلى شيء ما، شيء ينأى بي عن كلِّ هذا العبث، شيء

أزهـد بـه في الأجسـاد ومكوناتهـا، أي شيء هـذا؟ يُجيبنـي بـرو الـذي بلـغ صبرُه مـداه:

- "فلتغنـكِ الأشـكالُ الهندسـيةُ القاسـيةُ الحـواف عـن الأجسـاد الملسـاء التـي لـن تعـرفَ حلاوتهـا مـا لـم تُجربهـا!"

عنـده حـق، لقـد تقدَّمـت في دراسـتي وأكملتهـا حتـى تخصصـتُ في الحِيـل النافعـة، الآن أطـوِّع معرفتـي في آلاتٍ ومعـداتٍ تُحقـق منفعـةً جليلـةً للإنسـان، قناديـل لا تنطفـئ في الريـح العاصفـة، آلاتٌ لرفـع الماء نُسـمِّيها الشـادوف، ميزان لقيـاس مـا تحتويـه الأجسـاد مـن شـحمٍ ولحـمٍ، أبـوابٌ تفتـح بشـكلٍ آلي عـن طريـق الحبـال، والكثـير مـن الحِيـل المدهشـة.

كنـتُ أتصبَّر كذلـك بالفـن الرائـع المهجـور مـن الجمهـور، قـراءة الروايـات في أوراقهـا قبـل تمثيلهـا، بـل وجـدتُ الكثـير مـن القصـص التـي لا يُمكـن لأي ناقـلٍ أن يُنفذها عـلى مسرحه، هنـاك الخيـال الجميـل الـذي لا يُهـزم، صعـدت في الروايـات عـبر النجـوم وقابلـت مخلوقـاتٍ عجيبـةً تحيـا هنـاك، هبطـتُ في أعـماق البحـار لألقـى السَّـمك يتكلـم ويحيـا كالإنسـان، تحدَّثـت مـع عظـماء الأرض الذيـن ذهبـوا وتركونـا، عرفـتُ مـاذا أحبُّـوا وكرهـوا وكيـف فكَّـروا.

رأيتُ ما لم يره برو ولن يراه، استقرَّ هو في التمثيل وبدأ يهجرني، لم أعد أراه كثيراً، صار ينساني كما ينسى كيسٌ أدواته، منشغلًا عني بعروضه الملآنة بالقماش، يُحبها أكثر من كلِّ مشاهديه، يحسدونه كل الحسد إذ يُجالس هاته الفاتنات المغريات، لديه شلة أصحاب آخرين لا ينفصلُ عنهم، أين صداقتُنا التي خلبت لُبَّ الجميع؟... لا أدري، حاولتُ دومًا لمَّ شملنا.. بلا فائدةٍ.

وبعد قطيعةٍ دامت خمسة أشهر، بلا زيارةٍ واحدةٍ أو رسالةٍ بالحَمام الزاجل حتى، وجدتُ برو يزورُني في أيام امتحانات العام، لم يدعْ لي فرصة لومه أو تأنيبه، فهو يعرفُ جيدًا أنني لم أقصِّر معه، لكنه عاجلني بسؤالٍ لم أتوقعه على الإطلاق في هذه اللحظة:

- "ذكرني بقانون مساحة المربع يا إيساف!"

***

هل كنتُ محض مخدوع في برو؟ صديقي الأقرب يتجاهلني متذرعًا بأعماله ويتهرب مني بلا سبب؟ وحين يزورني يقصدُ مصلحته مباشرةً، أصابني ما فعله بصدمةٍ شرعيةٍ بالغةٍ، ولم أدرِ بماذا أشعر تجاهه، زاد من منغصات

حيـاتي واحـدًا، غـير إننـي تناسـيتُ واكتفيـتُ بالعـودة لكتـابي حاسـبًا أنـه خـير صديـقٍ.

لكـن فـن الكتابـة طالتـه ذاتُ اليـد التـي طالـت غـيره، إذ حفـل بالقماشـيات وتفنـن في وصفهـم، كان الكتـابُ محـض عـرضٍ مسرحـي مغـرٍ، وجبـةً دسـمةً لـكلِّ متعبـدٍ ورعٍ، محض خمـرٍ في صـورة ورقٍ، يؤهلـه لعبـادة أكـثر اشـتياقًا، لكننـي لم أكـن منهـم، لهـذا كنـتُ أتخـير قـراءاتي بصعوبـةٍ، إذ يخلـو أي عمـلٍ جيـدٍ مـن هـذه النغمـة، وعـدتُ وحيـدًا لا أجـدُ مَـن يُشـابهني في فنـي المفضـل، احتضنـتُ الدراسـةَ راضيًـا قانعًـا بحبـي لهـا، يكفينـي أن لـديَّ شـيئًا أحبـه، وأتسـلى مـع قطِّـي.. فـروُه بلـون المشـمش الطـازج، تكتـظ غُرفتـي بالكتـب يمـرحُ بينهـا القـط في سـعادةٍ.

لكــن الدراســةَ الصعبــةَ المرهقــة، لم تجلــب لي الســلوى فقـط، بـل عرفتنـي بـأجمل مـا عرفـتُ حتـى الآن، بأجمـل سـلوى ونجـوى، بأحـلى مـا يُمكـن رؤيتـه ونسـيان الدنيـا كلهـا معـه، كانـت جميلـةً.. جميلـةً بحـقٍّ.

ـ "قصدك حبيبتك الجديدة يا نمس؟"

أجمـل حبيبـة في تاريـخ الحبيبـات، لـو أن نظـراتي نـارٌ لاحترقـتْ حبيبتـي مـن طـول نظـري، غـير أني كنـت لأحـترق بـدلًا عنهـا، نظـرتُ ونظـرتُ ونظـرتُ حتـى شـكتْ عينـي، لم

أفعـل شـيئًا سـوى النظـر لهـذه الأعجوبـة، كنـتُ أسـبِّح الإلـهَ الـذي سـوَّاها.

ـ "كلنا نقول هذا ونفعله... وما اسمها هذه المرة؟"

اسـمها وحـده حكايـة... كان يروقنـي... يُناسـبني، كأنمـا خُلـق لي.. فأنـا (إيسـاف)... وهـي (نائلـة)، وتمنيـتُ أن نصبـحَ معًـا جديريْـن باسـميْنا.

***

-١٢-

دعوني أصفُ لكم أجمل ما رأتْ عيني، كستنائية الشَّعر تعقصه في غديرةٍ طويلةٍ خلابةٍ.. فهي لا تُغطِّيه للأسف، بيضاء البشرة ناصعتها، في وجهها ألقٌ دائمٌ، كأنه نور قنديل لا ينطفئ، عيناها بلون قِطي المشمشي، فاتحتان تبرقان في الشمس، ينتشرُ النمشُ الخفيفُ أسفل عينيها، لا يظهر إلا عند الاقتراب منها، جسدها... ماذا عن جسدها؟! لا أحسبني أعرفه.. لم أنظر صوبه كثيرًا.. لم يكن يعنيني في شيءٍ.

لم تكن محض جميلةٍ، بل بارعة جدًّا في الحيل النافعة وخاصة التي نستخدم فيها الخيوط، تسبقُ زملاءها جميعًا بمن فيهم أنا، أحببتها كثيرًا، لم أرَ غيرها حولي، ملكتْ كل عالمي وملأتْ لي كوني بأجمل المشاعر، خبرة لم أجربها على الإطلاق من قبلها، باتت منغصاتُ الحياة بعيدًا بعيدًا،

هجـرت الكرخانـات والمواخـير... اعتزلـتُ النظـر في الشـارع، ودَّعـت المسـارح ومـا يجذبنـي إليهـا، كل شيء انتهـى مـن أجلهـا، مـن أجـل (نائلـة).

- "وهي حبتك أوي كده؟!"

لا يا غاندي.. فأنا لم أكلمها بعد...

- "كل ده ولسه مكلمتهاش يا أخي.. ده إنت نيلة.. ليه طيب ؟"

لأنها... لأنها قماشية يا عزيزي غاندي.

- "آهـاااا... عشـان كـده مبصتـش علـى جسـمها.... وأنـا اللـي كنـت مسـتغرب!"

***

قماشـية كانـت.. بـل هـي مـن ذوات الملابـس، عرفـتُ أنهـا لا تقـربُ الكرخانـات كذلـك، فاجـرة!... لا تسـتحق شرف اسـمها، نائلـة التـي ولـدت ابنهـا مـن الإلـه ذاتـه حـين تجسَّـد ومارسـا الطقـس معًـا فكانـت أعظـم لـذة ونتـج عنهـا النبـي (إبيقـور)، أنـا أيضًـا لا أسـتحق شرف اسـمي، إيسـاف النبـي الـذي رفضـت زوجـة سـيده أن يُشـاركها في الطقـس فأغلـق لـه الإلـه الأبـواب حتـى أدركـت مكانتـه وعظمـة العبـادة،

مـع أنـه كان أقبـح العبـاد، وفيـما بعـد صـار إيسـاف ونائلـة يتعبـدان معًـا، أيَّ إيمـان.. أيـة عَظَمـة؟! أيـن نحـن مـن كل هـذا؟.

حـين رأيـتُ نائلـة ظننـتُ أنهـا سـبيلي للرضـا عـن نفـسي فيـما يخـصُّ العبـادة، عقـدتي الأكـبر، راقتنـي بوجههـا الأخَّـاذ، لكنـي صُدمـت مـن جسـدها المخفـي تحـت الملابـس، فكـرتُ أن أحــاول معهــا مــن جديــدٍ في الكرخانــة، اتضـح لي أنهـا مثـلي... بتـولٌ بعـد، لمـاذا لا نتـوب معًـا إذن؟! نحـن مثقـلان بالخطايـا والنفـور مـن الحـق، لنعـد إليـه معًـا.. نسـعى بـكل قوتنـا للصـواب، كانـت لـديَّ خطتـي نفسـها، سـأحدِّثها بـكل صراحـةٍ... أوحشـتني سـلامة نفـسي حقًّـا وسـلامة جسـدي، لا بـد أنهـا سـتتفهمني.. سـتعودُ لرُشـدها معـي.

الـكل يُحبهـا مثـلي، لأنهـا جميلـةٌ في أعينهـم دون شـك، لكنهـم يمقتونهـا لاختلافهـا، أنـا لم أفعـل، أحببتهـا نفـس حبـي لإيرمـا وزدت عليـه، لأننـي الآن أعـي حقيقـة مشـاعري أكـثر... أريـد العيـش معهـا وأن نتشـارك تربيـة أبنـاء لهـا، أريدهـا لي وحـدي بخـلاف العبـادة، أحـب أن أبـدأ معهـا طقـسي المقـدس كحبيبـة ولكـن... كيـف وكلانـا نغـصُّ بالخطيئـة.. تتسـاقط منـا ويراهـا النـاسُ في كل وقـتٍ؟

سأكلمها غدًا ويكون ما يكون، بدأت أشعرُ بضيقها جرَّاء نظراتي، فأنا لم أفعل سوى النظر والتأمل! بل زدتُ فيهما كأنني أعد بحثًا عن مخلوقةٍ اسمها (نائلة هُبل)

***

في اليوم التالي وعقب انتهاء المحاضرة، انتظرتها حتى خرجت من حانوت خاص بأدوات الدراسة:

- "نائلة... كيف حالك؟"

تلتفت برزانةٍ.. ترمقني بشكٍّ:

- "بخير... ما الأمر؟.. هل- حضرتك- تعرفني؟"

- "بالطبع.. أنا إيساف.. زميلك في دراسة الحِيل النافعة.. ألم تلحظيني من قبل؟"

تملصت مني بلباقةٍ:

- "لا للأسف... تشرَّفت بمعرفتك.. هل من شيء؟"

- "ثمة اعترافٌ أريد البوْح به... لكن.. أرجو أن تفهميني.. أعرفُ أنك ستفهميني"

- "اعتراف؟!... لا أفهم شيئًا... لكنْ لتُسرع أرجوك فلديَّ عملٌ كثير"

- "أنـا أراكِ منـذ مـدةٍ... منـذ بدأنـا الدراسـة معًـا... لـم أسـتطع أن أحـوِّل عينـي إلـى فتـاةٍ أخـرى غيـرك و.."

تصمت للحظـةٍ.. تقـول كأنهـا تسـمع شـيئًا عابـرًا اعتـادت عليه :

- "ثم...؟"

- "أنا.. أنا أحبك... أنا أعشقك!"

***

ينفجـرُ غانـدي في الضحـك الماجـن حتـى يخـشى محمـد أن يسـمعه الحـراس، محمـد نفسـه كان يضحـك حتـى صـارت عينـاه قوسـيْن ضاحكـيْن بدورهـما، كنـتُ في غفلـةٍ عنهـما، أسـترجعُ وجـه نائلـة الـذي اقتربـت منـه يومهـا!

- "يخرب سنينك ياض.. بتكرر نفس الغلطة يا ناصح"

قالها غاندي بصعوبةٍ بين ضحكاته العصبية.

- "صراحـةً.. عنـده حـق يـا إيسـاف، لا يعـودن أحدكـم للعابـدة البـاردة مرتيـن!"

- "حديـث نبـوي جميـل يـا محمـد.. لكنكـم لـم تعرفـا بعـد بمـاذا أجابتنـي!"

توقف كلاهما عن الضحك، نظرا لبعضهما ثم لي:

ـ "نعم... قصدك أنها مرقعتكش بالقلم تاني"

ـ "لم تفعل!"

ـ "يا راجل... أومال قالتلك إيه؟"

ـ "قالت لي.. ولِم لا؟!"

***

-١٣-

ردَّتْ نائلة في كياسة:

- "ولِمَ لا.."

- ".....تعنين أنك موافقة؟"

- "موافقة؟!.. على ماذا؟!!"

- "على أن تحبيني كما أحبك!"

ضحكت بجزلٍ جميلٍ، وقالت:

- "احببنـي كمـا تشـاء.. لكـن لا تُجبرنـي علـى ذلـك!.. ولا تُضايقنـي يومًـا"

- "لا أجبرك؟.. ولكن..."

- "هل انتهيت.. هل أذهب؟!"

- "مهلًا.. هناك شيء آخر"

ببرودٍ ردَّت:

ـ "آسفة.. لا أصادق الفتيان"

ـ "لا أعني هذا.. ماذا عن الكرخانة و..."

هنا هتفتْ في انفعالٍ:

ـ "اخرس.. لا تُضفْ كلمةً أخرى!"

ـ "و لكن أنا.."

ـ "تبًّا لك ولحبك.. اذهب!"

***

لا أفهم شيئًا، لا تحبني.. لا تُصادقني، ولا تتعبد مثلي؟! ماذا يدورُ في رأسك يا نائلة يا بنت هُبل؟ ولماذا لا تبغين التُّقى كما أبغاه؟ أية ثورة انتابتك حين جئت بسيرة دار الإله الحق؟ نائلة.. أنا مثلك وأنتِ مثلي، نفرنا مما نشأنا عليه ولكن.. إلى متى؟ إلى متى نظل هكذا بعيديْن عن التقاةِ... بعيديْن عن المجتمع؟ صدِّقيني.. سئمتُ وتعبتُ ومرضتُ.

فعلًا مرضت، تغيبت عن الدروس، أهملتُ فيها، وانتكست، عدتُ بشدةٍ للكرخانات.. أشاهد.. أنفعل... أفيض في لحظةٍ وحسب، كنتُ أتصبر بكل هذا، يُنسيني

مـرارة ردٍّ فعلهـا، كـدت أتـردَّى للطقـس المُقـدس، لكنـي أحجمـتُ في آخـر لحظـةٍ، حبهـا يتملكنـي.. يتمكـن منـي، هـل أتحامـق؟... أنـا لا أريـد سـواها، وأريـد أن نكـون معًـا والمجتمـع.. لـن أتعبـد مـع سـواك، لأننـي أحبـك.. لكـن لا تكـوني عكـس فطرتـك.. وأنـا مثلـك، لا تكـوني محتشـمةً مذنبـةً هكـذا بملابسـك، وأنـا ببعـدي عـن العبـادة وتشـبُّهي بالعابديـن.

ولاحظـتْ نائلـة مـا ألمَّ بي، لاحظـتْ وجومـي وشرودي، لا نظـر لـدرسٍ ولا سـماع لنـصٍّ، أحـدِّق في الفـراغ هائمًـا وحسـب، لم أعـد أُيمِّـم نظـري ناحيتهـا حتـى، وإذا لقيتهـا في مجـال بـصري مصادفـة أشـيح بوجهـي عنهـا في أقـل مـن لحظـةٍ، بقيـتُ عـلى هـذه الحـال.. أحـضر يومًـا وأغيـب أيامًـا، حتـى جـاء يـومٌ.. وجدتُهـا تقـتربُ منـي وتقـول:

- "أخيـرًا أتيـتَ؟.. أرغـبُ فـي التحـدث معـك... لـو سـمحت!"

***

جلسـنا في اسـتراحة الطلبـة، تنظـرُ نائلـة لأسـفل كأنهـا تتحـاشى رؤيتـي، أنـا أيضًـا تحاشـيتُ بصعوبـةٍ نظـرات

الاشمئزاز والضيق من العابرين إذ يرونني أُجالس فاجرةً خاطئةً ذات ملابس كنائلة.

- "لم أعرف أنك تعلقتَ بي لهذا الحدِّ بمحض نظراتٍ ولهاء يا إيساف، انتابك تغيُّر عظيم، لا تهمني في شيء صدِّقني.. فقط أريد أن أعرف.."

ثم رفعت عينيْها نحوي.. أردفت:

- "ماذا تريد مني؟... كيف تراني؟... أخبرني بكلِّ صراحةٍ يا إيساف... أرجوك!"

أصمتُ قليلًا... أحتفظُ بصدى اسمي الذي نطقته مرتين.. وأتأمل ملامحها الأسطورية عن قربٍ، النمش القليل البديع، ملحمة من الفن والإبداع الإلهي، لكن فلأقل كل ما بداخلي، فلأفعل طالما سنحت لي الفرصة:

- "أخبرتك أنني أحببتكِ.. ولكن.."

أصمتُ للحظةٍ.. أتجهز لما سأقول، أُفلت زمام الكلام:

- "لماذا تفعلين هذا؟! لِمَ تعارضين إلهك ودينك؟! تُخالفين المجتمع كله وتمضين وحدك مذمومةً مكروهةً، تتجنبين دور العبادة وتنفرين من التقيَّات؟"

أتنهد وأتأملها بحزن، قلتُ لها أخيرًا:

- "وما هـذه الثيـاب الخليعـة التـي تغطيـكِ... اخلعيهـا، اخلعيهـا! وليكـن مظهـرك كمـا أمـرك إلهـك ودينـك!"

تتأملنـي سـاخرةً، لسـان حالهـا يشـتمني بألـف لغـةٍ، تـردُّ أخـيرًا باسـتهزاء:

- "أخلع ثيابي؟!.. ولِمَ لا تحلق أنت لحيتك أولًا!"

- "أوبـاااااااااااااااا... أحرجتـك يـا برنـس... صحيـح إنـت دقنـك طويلـة كـده ليـه؟"

***

-١٤-

تحسستُ ذقني، نامية قليلًا،خلاف أمر النبي عزازيل! الحلق فُرِض من الإله بالطبع، كنتُ أتركها أنا الآخر.. لا أحلقها كما ينبغي.. أغلب الرجال في العاهرة لا يحلقونها مثلي و...

- "أنا أشفق عليك حقًّا"

قالتها في صدقٍ، ثم أردفت:

- "أنت تحبني.. أم تحب مجتمعك؟!"

- "أحب.. أحب الدين... وأحبك"

- "لو كنت تحب الدين.. لحلقت لحيتك وشَعر جسدك، ولقصدت الكرخانات.. لكنك لم تفعل... مثلي"

- "ماذا تقولين؟.. أنا لستُ مثلك ولا أتخذ الملابس!"

- "لأنك جبان.. لا تندهش هكذا، أنت بالفعل أجبن من رأيتُ في حياتي، لا بد أنك تحب ترك شَعرك هكذا لأنه يشعرك برجولتك واختلافك عن النساء، كرهت التعبد وهجرته، ربما تفكر في ارتداء الملابس مثلي عما قريب"

- "اخرسي.. أنت.. أنت فاجرة!"

- "ما الفُجر والعهر بالضبط يا صانع الحِيل؟ أين الحق... أين الدين؟! هل هو حقًّا ما وُلدنا عليه؟ صدِّقني.. ملابسي هكذا لا تُرضيني.. أريدها أثقل! لكني على درجةٍ من الجُبن أنا الأخرى، أخبرني أنت: من أمرنا بالسير عراةً؟"

- "الـ... الإله بالطبع"

- "وأنا إلهي أمرني ألا أفعل هذا... ولكلٍّ منا إلهه، لكل منا كاهنه"

- "نائلة.. أرجوك كُفي عن هذا.. كوني معي"

- "لست معك، ولا أودُّ أن أكون... أنت لا تُحبني، أنت تُحب صنعة الإله في وجهي، وتُحب تقاليد مجتمعك، دعني وشأني، لن أتغير وأصير تقية كما تريدني، لن أسيرَ عاريةً في الشارع ملطخةً جسدي

بدهـانٍ سـخيفٍ وأغطـي شَـعري وحسـب، أمـا أنـت فابـقَ علـى مـا أنـت عليـه.. مذبـذب.. مغبـون، المشـكلة فيـك أنـت... وحـدك، أنـا بـلا مشـاكل... اذهـب لحالـك!"

ـ "انتظري.. لا تذهبي و..."

***

وذهبـتْ، وذهبـتُ لحـالي كاسـفَ البـال أسـوأ مـن ذي قبـل، قاطعـتُ الدراسـة نهائيًّـا، حلقـتُ شـعري وذقنـي بشـدة في البدايـة، ثـم تركتـه ينمـو بـلا اهتـمامٍ، حقًّـا مـاذا أريـد؟ مَـن أنـا.. وأيـن الحـق؟ أي الألـوان أفضـل... الأزرق خـلاب.. الأحمـر بديـع.. الأصفـر... جميـل.

نائلـة... أيـن أنـتِ؟ هـل جئـتِ لتعذبينـي وحسـب؟ أحبك ولكـن... هـل أدع دينـي مـن أجلـك؟ أحـب إطالـة الشـعر.. كل الرجـال تُطيـل شـعرها في العاهـرة، لكـن ليـس كل النسـاء يكتسـين بالملابـس مثلـك، مـا معنـى هـذا؟ ألومـك لأنـك تُخالفـين الديـن.. أم تُخالفـين المجتمـع؟ ومَـن فينـا الصحيـح.. نائلـة، ذهبـت اليـوم فقـط لأراكِ.. لألتمـس شـذاك.. لأرى عينيـكِ، تنضحـان بأجمـل لـون.. أجمـل مـن الأحمـر والأصفـر والأزرق.. لـون المشـمش.

هـل أحببتـك فقـط لجمالـك؟ ولكـن.. لمـاذا يُحـب المـرء أصلًا؟ لا أفهـم.. لا أعـي، هـا أنـذا أراكِ خلسـة.. أهـربُ حـين أشـعرُ بنظراتـك ترصـدني، أعـودُ.. جائعًـا إلى عينيـك.. لـون المشـمش هـذا، وحـين عـدتُ إلى منـزلي، وجدتهـم يقفـون هنـاك أمـام البـاب.. بأوشـحتهم السـوداء، بالريـش عـلى أكتافهـم والقنـاع ذي المنقـار عـلى وجوههـم، المُميتـون.

مَـن حـان وقتـه؟ لا.. أبي؟.. أمـي؟.. وهرعـتُ ناحيتهـم، أصيـح في توسـلٍ

- "مَن.. مَن تُريدون؟ هل تقصدون هذا البيت حقًّا؟"

تُحـدق بي عيونهـم الخاليـة مـن الحيـاة في بـرودٍ، اعتـادوا هـذا الأسـلوب مـن الأهـل حتـمًا:

- "هو البيت بعينه"

- "كيـف.. إن أبـي وأمـي بخيـر، ولـو مرضـوا فسـريعًا مـا سيشـفون.. أؤكـد لكـم"

- "ليس أبوك أو أمك يا فتى"

وسقط قلبي بين قدمي.. إذن.. إذن:

- "تقصدون أنني.. أنني الميت؟.. أنا من المحظوظين؟! ”

- "وليس أنت أيضًا.. بل القط"

- "الـ.. القط؟!!"

وخرجوا بالقط بعد دقيقةٍ، مكوَّمًا في أيديهم بلا حركةٍ، قطي الذي يذكرني بها.. مات أيضًا؟! أتى اليوم الذي رأيتُ فيه الميتين عندي، قضيت ليلة سوداء، أبكي لموت القط.. ولموت حبي، ولخوفي من يومٍ أموتُ فيه فاجرًا مُخالفًا إلهي، ويموت أحبتي، تموت نائلة.. ويذوى جمالها بين البِلى والدود، كل شيء يموت.. كل شيء سيموت، سيأتي الميتون ويأخذونه بلا رجعةٍ.

***

وكان اليوم الأول الذي أحلم فيه، حلمت بقطي يمشي في صحراء قاحلة، صغير جدًّا... ضئيل جدًّا.. تائه جدًّا، كذرَّة رملٍ في الصحراء... بل هو كذلك بالفعل، لم أكن معه.. كنت أرى المشهد كأنه عرضٌ مسرحي مُجسم، بدا لي موقفه مُخيفًا مرعبًا.. ذاك البائس، ما مصيره.. وهو وحيد.. الأسوأ أنه وحيدٌ بلا صاحبٍ أو شريكٍ، مثلي.. حين تركني برو يهوه وذهب لحاله وشلته.

وظل القط يمشي، كان رغم كل شيء يلعب.. أليس قطًّا شقيًّا في كل حال؟ يُطارد ظلال النباتات الجافة في مرح، يجري حينًا ويمشي حينًا آخر، لا يدري أنه بلا طعامٍ أو

شرابٍ أو مأوى، وعما قريبٍ ربما تتلقفه الطيور الجارحة قبل قضائه جوعًا وعطشًا، وهنا فقط.. رأيت ظلًّا يدخل المشهد، فاردًا جناحيه في عَنان السماء، طير أسود.. يدنو من القط، يهبط إلى أسفل.. يبغاه وجبة شهية، صدق حدسي.. صقر أو نسر أو حتى حدأة، انتهت حياة المَرِح المغبون.

القط الغرير، راح يعبث مع الظل، يزيد القط سرعته فيفعل الطير مثله... يتبعه... يقتنصه بنظره قبل مخالبه، يترصده ولن يضيعه، ويقترب الظل.. ومعه الطير، الطير الذي.. الذي لم يكن جارحًا، لم يكن مخيفًا بهذا القدر، لكنه كان القدر نفسه للقط، كان غرابًا.. أتعيش الغربان في الصحراء؟ القط يُلاعب الظل غير عابئ.. والغراب صار أعلاه.. أعلاه بما لا يذكر، فاردًا قدميْه بمخالبها السود و... أصحو صارخًا في رعبٍ.

قطي المشمشي.. مات، حتى في حلمي.. أخذه الغراب، ولم يكن هذا نهاية المطاف، فقد طاردني الذئب مراتٍ لا تُحصى، في الحلم الآخر الذي سأقصه عليك الآن يا محمد، آملًا في تفسيره، فلعلك تكون منقذي من ضلالي وحيرتي.

***

-١٥-

انتهيتُ من قصِّ حلم الذئب، وأخيرًا الدبُّ الذي أنقذني الليلة قبل إيداعي هذا السجن المُسمى بالمسجد، وصمت محمد مفكرًا بينما جلجلت ضحكات غاندي الهازئة ثانية:

- "هاع هاع هاااااااع... ديب ودب وغراب وقط؟... متأكد إنك بتدرس الحيل النافعة ولا شغال حارس في جنينة الحيوانات؟"

ينهره محمد في حزمٍ:

- "صه يا غاندي... هذه كلها رموزٌ ومعانٍ أنت تجهلها"

- "طب كويس إني بجهلها.. أقولك حاجة، أنا حلمت بحمار إمبارح، فسَّر يا عم وسمعني! "

تجاهله محمد ووجَّه حديثه إليَّ بنفس الحزم:

- "إيساف.. أتحبُّ أن تُضيف شيئًا قبل التفسير؟ أي حدثٍ مهم أو معلومة قد تُحدث فرقًا معي"

أقولُ في تسليم:

- "لا.. لا أظن، حكيتُ لكم كل شيء، أنتم الآن تعرفون عني كما أعرف أنا عن نفسي، تلك مسرحيتي بكامل فصول العرض"

- "إذن.. فالحلمان واضحان تمام الوضوح، وسبب وجودك معنا هنا أيضًا"

- "حقًّا يا محمد؟ هل أستحق ما أنا فيه؟"

- "تستحقه.. وسأخبرك الآن لماذا"

***

راح محمد يُحدثني واعظًا..

"الأمر جلي كما الشمس المشرقة، أنت بالفعل تنكر فطرتك وسليقتك، منذ شببت وأنت تُحاربها داخلك قبل خارجك، اختار لك الإله أسمى مدائنه لكنك رفضت هديته بكل قسوةٍ، جنحت للسوء والفجور، مع أن العُهر يتدفق من بين يديك ومِن خلفك، ألا فسحقًا لهذا السلوك،

الصدقَ أقول لك: أنت عار على العاهرة، عار حتى على هذه الزنزانة في هذا المكان القذر، أنت الضلال ذاته يمشي ويُكلم الناس، لا بد أن تُمزق إربًا ويرموا أشلاءك للكلاب الضالة يا إيساف برصيصة، حملت أقدس الأسماء لكن العار يجللك ويُثقل كاهلك، ألا فالإله القاسي الغليظ قادك للسجن بدلًا من الموت، إنك حتى لا تبكي لكلماتي هذه! ما زلت تظن أن أفكارك السفيهة تستأهل الحلول في عقلك!"

"أنا أشفق عليك ولذا سأساعدك، سأخبرك بتأويل الرؤى، عسى أن يكتب لك الإله النجاة مع أنه قاسٍ غليظٌ لا يقبل حماقات العباد، أما عن القط والغراب، فالرؤية ساطعة كفلق الصبح وأنت قلتها بنفسك، الموت غراب أسود حطَّ على القط الجميل شبيه عينيْ حبيبتك في لونه، الموت سيأخذها يومًا ويأخذك، أليس المميتون يضعون أقنعة الغربان؟ وسيأتون لك في أيِّ وقت؟ وأنت يا أحمق البشر تضيع الوقت بعيدًا عنها وعن لذاذات الحياة، تهجر دار العبادة وتكف العابدة التقية الشفافة عنك، وهي تتشبث بك لمنحك نفسها لكنك تدفعها بعيدًا، الإله يُقدم لك الإنذار، الغراب سيهبط في أي لحظةٍ ليقودك للجحيم، الجحيم الذي سيسعد بالحمقى

مثلك، فكل عاصٍ هو في الأصل أحمق، لذا فاسعَ يا عبد الإله لخلاصك بين أحضان العابدات التقيات، حالقًا شَعر جسدك كله من أجل الرضا الأعظم من الإله الأعظم!"

"وأما الذئب والدب، فالحق ظاهر لكل عاقل بخلافك، الدب هو شعار العاهرة، الدب هو النجدة والنجاة من الإله، كيف بقيت في غيك بعد كل إنذارات الإله إليك؟ عشرين حلمًا وأنت لا ترتدع؟ الذئب الذي كاد يأكل النبي إيساف وأنقذه الإله بدبٍّ مزَّق الذئب تمزيقًا، الدب أنقذك وسينقذك حقًّا لو تبعته ورغبت في جواره، إيساف أيها العبد الآبق، أنت تشبه عالمك.. لكنك تُنكر هذا بشدةٍ، ولذا تتنافرُ معه كما تنصُّ قوانين الفيزيقا، الحل أن ترتمي في أحضانه لأن شبيه الشيء منجذبٌ إليه، الحل بين يديك وأمام ناظريك فهلا تمشي نحوه وتسلك الدرب الصحيح قبل فوات الأوان؟!"

***

- "الحل... أين الحل؟.. الـ.. الكرخانات، المواخير.. حلق الشَّعر؟"

يهدرُ صوتُ محمد في غيظٍ:

- "دعك من حلقِ الشَّعر يا أبله، اتركه كما هو"

ـ "لكن الحلق فرضٌ من الإله و.."

يُمسكني محمد من منكبيّ ويجذبني نحوه، عيناه تشتعلان في ثقبيْهما، صوته المنهك صار أشدَّ إرعابًا كوحشٍ جريحٍ:

ـ "الناس لا تحلق يا هذا، والنساء لا يرتدين الملابس.. هل فهمت؟ أنا كاهنك.. أنا أخبرك بالحق"

ـ "فهمت فهمت... إذن فعليَّ بالطقس المقدَّس، حتى لو كانت عابدةً غير نائلة"

يتركنى محمد ويقول فاردًا ذراعيْه:

ـ "تلزمك التوبة النصوح يا إيساف، وأن تبدأ بما تخشاه من أجل الإله"

ـ "تعني... تعني نائلة نفسها؟"

أشار لي بسبابته صارخًا:

ـ "أنت تحبها.. إذن سيكون الطقسُ أجمل وأمتع"

ـ "لكن.. لكنها"

ـ "لكنها فاجرةٌ وعاصيةٌ مثلك... وهنا بيت القصيد"

ـ "أرشدها للتوبة معي؟"

ـ "ولو بالقوة"

***

-١٦-

ـ "تعني أن أجبرها على الطقس؟"

ـ "هكذا تعتذرُ عن كل خطاياك السابقة"

ـ "هل الإله يرضى عني بهذا.. هل يريد مني حقًّا هذا؟"

ـ "الإله لا يريم إلا هذا"

ـ "إذن سأفعله... سأفعله وحقِّ الإله ما استطعت ذلك"

***

المشعل الوحيدُ في الزنزانة أشفر على الانتهاء، ماتت جذوته أو كادت، ساد الصمت بين ثلاثتنا، ارتفع غطيطُ غاندي الذي ملَّ محمدًا وأسلوبه الوعظي الصارخ، رحت أرمق الأرض المنقوشة باتجاه السجود، هل سأسجد قسرًا عما قريبٍ؟ هل سأموتُ وتلتهمني الكلابُ الضالة؟ أو ربما الغربان السود، قطي المشمشي.. نائلة... أبي وأمي.. كتبي

وفنوني وحيلي النافعة، وكل جميل بحق في عالمي.. أين أنا منكم الآن؟ لكن لا.. لن أعودَ إليكم إلا طائعًا مهتديًا، وإلا فالسجنُ هنا والسجود أهون من كل شيء.

نائلة.. أنتِ السبب في كل ما حدث لي، لو سمعتِ كلماتي.. لو تُبنا معًا، أنتِ حمقاء مثلي، حمقاء وغبية.. لا، بل أنتِ الأجمل والأصدق من كل شيء، لا.. بل سأفعل بك ما يفعله كل التقاة، سأفعله مهما قاومتِ أو رفضتِ، بل سأتركك لأنني أحبك، ولكن ولكن.. آاااه، طفت دموعي وغلبتني أخيرًا، بكيتُ كما لم أبكِ منذ رحل قِطي، بكيتُ بكل هموم وأثقال البشر، بكيتُ لعالمٍ قاسٍ وإله قاسٍ، لم يرحمني كلاهما، بينما حدث العكسُ مع نائلة، رحمها إلهها وعالمها عندما وثقت بهم، تبًّا لك يا نائلة.. وتبًّا لكل شيء.

وزاد نحيبي وأنيني، حتى أتاني محمد، وأسند رأسي لمكنبه:

- "نم يا صديقي، نم واحلم من جديدٍ.. وارغب في التوبة بقلبك"

- "محمد.. أهذا هو الدين الحق الذي سُجنت هنا من أجله؟"

- "ليس هذا فقط يا فتى، بل وأكثر"

- "لكنك لست ضد المجتمع مثلي"

- "أنت ضد الإله والمجتمع.. لذا أتيت هنا"

- "وماذا عنك؟"

- "دعك مني... ألم أخبرك أنني من أجل الدين؟"

- "ولكن..."

- "نم يا إيساف، عسى أن يهديك الإله ويردك إليه أخيرًا"

***

ونمـتُ متعبًـا، تسـتكينُ مفاصـلي وضلوعـي بعـد كل أذى الليلـة، غـير أني لم ألبـث أن صحـوتُ مُجفـلًا، فثمـة يـدٌ تهزُّني في إلحـاحٍ، أفتـح عينـي بصعوبـةٍ، ألفيـت قنـاع محمـد القـماشي وصوتـه المبحـوح يهمـسُ عاليًـا:

- "استيقظ يا إيساف.. أسرع"

- "ما.. ما الأمر؟"

- "فرصتك الوحيدة للنجاة.. قم الآن"

أقـوم في لهفـةٍ، يشـير محمـد لشـخصٍ مفتـول العضـلات حـاد النظـرات يقـف بجانبـه، عرفتـه على الفـور، أحـد الحراس

بالطبـع، اللـون الأسـود يغـزو جسـده، ومـن خلفـه رأيـت بـاب الزنزانـة مفتوحًـا.. مـا معنـى هـذا؟

ـ "إيسـاف.. لقـد شـرحت للحـارس كل شـيء، وقـد تفهَّـم موقفـك وقبِـل مسـاعدتك، نعـم.. الآن سـيأخذك للخـارج لتصحيـح كل أخطائـك"

تنفـرجُ أسـاريري وتتسـع عينـاي فرحـةً.. لا أُصـدق، يومـئ محمـد بصـبرٍ:

ـ "فلتسـرع الآن ولتذهـبْ معـه.. سـيوصلك للمـكان المناسـب"

أعانقُ محمد دامعًا، ما زلتُ لا أصدق:

ـ "ولكن.. ماذا عنك وعن غاندي؟"

ـ "نحـن لا أمـل منـا، لـو هربنـا فسـيُعيدوننا حتمًـا، حـلُّ قضايانـا ليـس بالهـرب، بخلافـك أنـت، تذكـر فقـط مـا اتفقنـا عليـه"

ـ "سأتذكر.. لن أنسى أبدًا"

ـ "هيا بنا!"

يقولهـا الحـارسُ بغلظـةٍ، أدع محمـدًا وغانـدي النائـم هنـاك، يقتـادني الحـارس عـبر شـبكة الممـرات قابضًـا عـلى يدي

بحسمٍ حتى بلغنا باب المسجد، منه لاح الظلامُ المُقمر البديع، ظلام الحرية، يتجه الحارسُ نحو عربة الجياد نفسها، يشير إلى المكان بجانبِ الحوذي، ويقول:

- "اركب!"

فأطيع الأمرَ ويجلسُ الحارسُ بثقله إلى جانبي ممسكًا بالسرج، تنطلقُ الجياد نحو النجاة، انتهى الكابوسُ أخيرًا، وبكيتُ من جديدٍ متخيلًا حياتي القديمة و..

- "لم ينته الأمر بعدُ"

اسمعها رغم الهواء اللافح من حولي، أكمل الحارسُ كلامه:

- "ينقصك التوبة الكاملة.. الندم وحده لا يكفي"

لا أفهمه، ولم أشأ سؤاله، انتظرت حتى يأخذني لبيتي ولكن.. مرَّ الوقتُ سريعًا ووجدتُ نفسي أمام بيتٍ آخر، بيت كنت أعرفه جيدًا، من الطوب وليس القشّ، وفي طابقه الثاني، كانت نافذة مضاءة و.. وتوقفت العربة.

- "فلتتسلق هذه الشجرة حتى النافذة.. وهناك تعرف ما عليك فعله"

لم يكن سوى بيت نائلة.. بالفعل، فهمت كل شيء، نظرت للحارس سريعًا ثم تسلقت الشجرة بلا كلمةٍ،

تسلقتها كالمجنون، كالهارب من حكم الإعدام، بعد كل الهول الذي شهدته بسبب نائلة، هل أتردد للحظةٍ واحدةٍ؟ لا بد أن أحفز نفسي قسرًا لاشتهائها، أمنّي جسدي وغرائزي بها.. ورأيتها حين وصلت للنافذة، كـ(روميو) الذي تسلق الشجرة ليمارسَ الطقس مع (جولييت) رغم رفض أهلها لذلك.

هي بشحمها ولحمها الثمين غافية هناك، نائلة الفاجرة العاصية الـ.. الغبية، نائلة التي خالفت النصوص ولم تتعرَّ مثلنا، لم يجذبني جسدُها يومًا رغم اختفاء معظمه عني.. ولكن الآن... حتى في نومها لم تتخل عن الملابس؟! يلتمع ما انكشف من جلدِها الناصع في ضوء القنديل، فلتثيريني الآن وتُحركي ولعي الخامد بداخلي منذ رأيت إيرما، لأتوق إلى نزع ملابسك.. بل تمزيقها تمزيقًا، ودخلت من النافذة، لم أحدث أي جلبةٍ، لكنها تقلبت في نومها وبدت أكثر إثارة.. لا بد أن تكون كذلك، ودنوت منها أكثر وأكثر.

سأفعلها عنوةً، سأتوب وأتوّبها معي، لن أعودَ للمعصية ثانية يا محمد، وستحملين لي جميل صنيعي ما عشتِ يا بنت هُبل، يا حبيبتي، يا غاليتي، رفعتُ يديَّ نحوك قبل حتى أن أصلَ إليك، عيناي تلتهمانك وترشقان كلك، لا لم أنظر لوجهك الآن فما عاد يعنيني، أنا الآن أتوبُ يا

نائلـة... أتـوب بحـق، أشـتهي الجسـد في حـلال الإلـه، ومشـيتُ ببـطء ويـداي مـا زالتـا مرفوعتـيْن، تبغيانـك.. تريدانـك، وأخـيرًا وصلـتُ إليـك، بلغـتُ مقصـدي واسـتعدَّت يـداي للهبـوط.. كل شيء جاهـز.. كل حـواسي متيقظـة... سـأفعلها... سـأفعلها..

وهبطت يداي..

وأصابعي المنفرجة..

تستعدُّ لنهشك..

كمخالبِ الغراب..

كأنيابِ الذئب..

كأيدي الدبِّ يُمزق فريسته..

لم يتبق شيء..

أقصر مِن أقصر خيطٍ في حِيلك النافعة..

وتمضي يداي... ويتوحش وجهي الساعي للتوبة..

***

-١٧-

سأفعلها بك يا نائلة أخيراً..

يا سببَ البلاء..

يا أحلى ما في دنيتي..

يدي تعرفُ طريقها..

ذكريات الكرخانات تتداعى..

رغباتي كلها تنتظر..

وباقي الجسد ينتظر و..

أكادُ أتلوى من الشهوة..

وهنا...

وهنا فقط...

ثبتت يداي...

شُلت يداي..

وبكت عيناي!

***

لم أستطع... وارتمت يداي إلى جانبيَّ، وسقطت دمعةٌ مني على وجهها، وددتُ لو قبلت جبهتها فقط، لكني تراجعتُ ناظرًا إليها عبر الدموع، لا أريد هذا.. لا أُريد هذه التوبة، بل أريد حضنًا منها ولو بالملابس، أبغي عناقًا يرد إليّ روحي، أضمُّها وتضمُّني، وأبكي على منكبها غير آبهٍ أو خزيان، نائلة.. حبيبتي، ودفنتُ وجهي في يديَّ أنتحبُ، ويعلو نشيجي خفيضًا و..

- "أحمق"

سمعتُ هذه الكلمة تتردد في المكان:

- "أحمق"

سمعتُها ثانيةً بصوتٍ أعلى، أبعدتُ يديَّ عن وجهي، رأيتُ نائلة وقد استيقظت، ترمقني بغيظ كل البشر في سريرها، تجزُّ على أسنانها وتلوي شفتيْها احتقارًا، تصرخُ مشيرةً إليَّ:

- "أحمق"

تقـومُ مـن السريـر، تدفعنـي بعنـفٍ وتـصرخُ كأنهـا تبغـي إصابتـي بالصمـم:

ـ "أحمااااق"

لا أفهـم شـيئًا، لمـاذا تنعتنـي بالأحمـق؟ ربمـا تظننـي سـأؤذيها، سـأعترفُ لهـا.. لقـد تراجعـتُ عـما في بالـك، المفـترض أن تشـكريني الآن و..

ـ "أنت يا هذا.. أيها الشيء القذرُ"

تصفعني بشدةٍ، وتُواصل الصراخ:

ـ "مَن تظـن نفسـك... هـه؟ أخبرنـي... مَـن تظن نفسـك؟.. النبي يوسـف؟"

النبـي يوسـف؟! وهـل لدينـا نبـي يُدعـى يوسـف؟ لكنـي مـع هـذا، أظننـي سـمعتُ هـذا الاسـم مـن قبـلُ.. منـذ زمـنٍ بعيـدٍ، حاولـتُ التفاهـم معهـا، لكـن غضبتهـا الهائلـة حالـت دون ذلـك، ظلـت تمطـرني باللعنـات وتـضربُ مـا تطولـه مـن جسـدي العـاري.. تـصرخ:

ـ "أنـت لا شـيء، أنـت فسـلٌ حقيـرٌ، سـتعيشُ وتمـوتُ غارقًـا فـي ذنوبـك، مهمـا نأيـتَ عنـي وعمـن سـواي"

وفي اللحظـة التاليـة، حـدث مـا فـاق كل أحلامـي رعبًـا، نائلـة.. وجههـا الجميـل صـار ناحـلًا أقـرب إلى العظـام، غـار

اللحمُ البضُّ، وما تبقى منه تآكل وتعفَّن، يداها وقدماها، كل جسدها صار كالجثة.. جثة حية:

- "ما رأيك بي الآن؟ لنفعلها إذن، أيسعدك هذا؟.. أتحب أن تنالني هكذا؟ تلك هي الحقيقة، لكل منا وقته كي يعيشه، وقته الذي سيملؤه بالمعاصي ولا ريب، بعدها لا شيء سوى الدود والتراب والعفن، ومن بعد هذا الجحيم وحده، هكذا نحن البشر، كلنا للمعاصي والذنوب، كلنا للموت، كلنا للجحيم، وأنت ستموتُ بلا ذرة استمتاعٍ بحياتك القصيرة أيها الأحمااااااااق"

وتمدُّ يدها المتآكلة لتمسك بي، لا أتخيل أن يمسَّني شيء كهذا، قبضتُ طرف الملاءة من فوق السرير، سحبتها وغطيت نفسي سريعًا بها، اندفعتُ هاربًا من النافذة، سقطتُ خلال ذلك الارتفاع ألوذُ بنفسي متوقعًا الألم الجسيم، سمعت صوتَ نائلة الميتة يناديني:

- "إلى أين؟... لا مهرب من الجحيم يا إيساف"

***

-١٨-

أرتمـي عـلى الأرض في عنـفٍ، لا أشـعرُ بـالألم قـدر إحسـاسي بالصدمـة.. بالهلـع، مـاذا حـدث للتـوِّ؟!.. نائلـة ماتـت أمامي؟! ولكـن أي مـوت.. وأي معنـى لما حصـل؟ رفعـتُ ظهـري لأرى رد فعـل الحـارس المنتظـر، كان مديـرًا لي ظهـره ولكـن.. مـا بـال هـذا السـواد يُغطـي ظهـره؟ شيء منفـوشٌ هنـاك لا أتبينـه في الضـوء الشـحيح، لم تطـل حـيرتي، فقـد اسـتدار الرجل ليواجهنـي و.. الرجـل، شـهقتُ في رعـبٍ أنظـرُ إليـه، لم يعـد رجـلًا.. وإلا فـما ذاك الريـش يُغطـي جسـده؟ ريـش؟!.. ريـش ومنقـار، ومخالـب يمدُّهـا إليَّ ناعقًـا بصـوتٍ يـكاد يقتلنـي، صـار كالميتـين، بـل هـو مميـت حقيقـي... لا يضـع قناعًـا، بـل هـو مزيـجٌ بـين رجـلٍ وغـراب.

الفـرار.. الفـرار مـن الهـول، مـن الجحيـم كـما قالـت نائلة، الجحيـم الـذي اكتمـل بـبرقٍ شـقَّ السـماء محيـلًا الليـل نهـارًا،

وتـلاه الرعـدُ مرجفًـا جسـدي أكـثر وأكـثر، ثـم المطـر ينهمـرُ كالسـيل فـوق رأسي مـدرارًا، تابعـتُ العـدْو فقـط أنهـج وأبكي، هـل الرجـل الغـراب خلفـي؟ أتـراه يتعقبنـي؟ أي كابـوس هـذا و.. نعـم، هـذا ليـس إلا كابوسًـا آخـر مـن كوابيـسي، نائلـة تصيرُ جثـةً أمـام ناظـري، والرجـل يضحـى غرابًـا؟ أنـا مـا زلـتُ في المسـجد نائمًـا، حلمـتُ بنفـسي أهـربُ وأتـوبُ ولكـن.. لم أسـتطعْ مجـددًا، أهـو اختبـار مـن الإلـه الغليـظ القـاسي وقـد رسـبت فيـه كالمعتـاد فاسـتحققتُ العقـاب؟

تلتصـقُ بي المـلاءة بفعـلِ المطـر، يطعننـي الـبردُ بسـببها بألـف خنجـرٍ، لكنـي لم أتخـل عنهـا ولا أدري لمـاذا، تعـثرتُ في حجـرٍ ضخـمٍ، وحـين هممـتُ بالوقـوف سـمعتُ الصـوت، صـوت آلاف الغربـان تنعـقُ في ثـورةٍ، مـن أيـن النعيـق.. مـن أي ناحيـة حتـى أسـلك غيرهـا؟ الصـوت يعلـو ومِـن كل الجهـات، ويعـود الـبرق منـيرًا الدنيـا.. لتتسـعَ عينـاي إثـر المشـهد الرهيـب، السـماء.. تزدحـمُ بـآلاف الرجـال الغربـان، يُحلقـون وينعقـون، يقصـدون هدفًـا واحـدًا بـلا شـك، زلزلنـي هزيـمُ الرعـد مجـددًا، رحـتُ أجـري لاهثًـا كالمحمـوم، كل هذا مـن أجـل نائلـة وإيرمـا و.. واصطدمـت بـشيءٍ مـا في الظـلام، كان.. كانـت إيرمـا! لكنهـا جثـة حيـة أخـرى، ناحلـة متآكلـة تُحـدق بي في وحشـيةٍ، قالـت بصـوتٍ كالهسـيس:

- "فلتأتِ يا حبيبي.. لنتعبد معًا!"

لم تكن وحدها.. بل خلفها جثة أخرى.. بل اثنتان.. بل جيشٌ كاملٌ منهن، كلهن يطاردنني.. كلهن يبغين رأسي، إلى أين؟ إلى أي مكان أهربُ؟ عُدت أعدو موقنًا بهلاكي، يا لغضب الإله القاسي، الغربان الضخمة تطير نحوي، تنهشني بمخالبها ومناقيرها، وأيادي الجثث المتآكلة تمتد نحوي، لكن الملاءة حمتني من جديدٍ حتى تمزقت وتهلهلت وغرقتْ بالدماء، إلى متى؟ إلى متى العذاب والألم والرعب؟ فلتقتلني وتنهي كابوسي هذا، كدتُ أقفُ وأستسلمُ لها بالفعل كعادتي، لكني وجدت فجأة ذاك البناء أمامي، عاليًا يشمخ في الظلام، المسجد.. هو بأبراجه وقبابه وأهلّته، هرعتُ إلى بابه دون أن أتساءل كثيرًا عن سبب وجوده هنا، الكابوس يكتملُ على كل حالٍ.

دخلتُ المسجدَ مباشرةً أتحسس طريقي في ممراته، تتبعني جحافل المطاردين والمطاردات، يصلني صوتُ النعيق وهسهسة الجثث، وجدت زنزانةً مفتوحةً، دخلتها وأغلقتُ الباب فورًا، كانت زنزانتي... أو هي تُشبهها، بل هي.. لأن محمدًا كان واقفًا كأنه ينتظرني:

- "ما هذا الذي يغطيك؟"

صوته.. لم يعد مجروحًا مُنهكًا، بل هو ثابتٌ صُلب:

ـ "ملاءتها.. ملاءة نائلة"

ـ "ماذا حدث بالضبط؟"

وحكيـتُ مـا حـدث بسرعـةٍ، واسـتمع لي محمـد بنفـاد صـبر حتـى..

ـ "ولم تفعل شيئًا؟"

ـ "لم أستطع"

كرَّر محمد سؤاله ضاغطًا على كل كلمة:

ـ "لم.. تفعل.. شيئًا؟"

ـ "صدِّقني حاولتُ، ولكن.."

ـ "أحمق"

ـ "ولكن أنا.. "

ـ "أنت أحمق مَن عرفتُ في حياتي يا إيساف"

ـ "محمد اسمعني فقط.. هذا محض حلم و..."

ـ "ليس حلمًا وأنا لستُ محمدًا!"

وأزاح محمد قناعه، لم يكن هو... كان..

ـ "عرفتَ الآن إلى أيِّ مدى كنت أحمق؟"

***

-١٩-

أصرخُ في جزعٍ حين أُدرك أنه..

ـ "برو... برو يهوه؟!!!"

ـ "أتعـرفُ مـم يتكـوَّن اسـمي أصـلًا يـا أغبـى الخلـق؟... مـن اسـمين تعرفهمـا جيـدًا.. بروتـس ويهـوذا"

ـ "هذا ليس بحق... أنا ما زلت أحلم"

يُمسكني برو بعنفٍ من ملاءتي:

ـ "أنـا هـو يـا غبـي، أنـا بروتـس يهـوذا صديقـك الممثـل، كل مـا حـدث كان تمثيـلًا، هـذا ليـس بحلـمٍ، أنـا مـن أبلـغ عنـك أمـن العاهـرة ليقتـادوك إلـى هنـا، بعتـك يـا أحمـق بثلاثيـن محظيـة فاتنـة أتعبـد معهـن فـي الماخـور"

ـ "حتى أنت.. تفعل بي هذا؟ مستحيل!"

- "المستحيل هو أن تفهم يا أغبى الأغبياء، ما من شيء يُسمى صداقة إلا في أحلامك، لكم كرهتك أنت ومُثلك البلهاء، تزهد في أحلى لذائذ الحياة من أجل نظرةٍ وعناق! أبله وأحمق وغبي"

ويدفعني برو إلى حائط الزنزانة، أصطدم به وأسقط في ذهول، أمازال الحلم مستمرًّا؟! لكني لم أشعر بالحقيقة كما أشعر بها الآن، ولكن أين الحقيقة... وأين الحلم؟

- "أنت لا تستحق العيش، مثلك ينبغي أن يموت.. فهمتني؟ يموت أبشع ميتة"

وراح برو يركلني في وجهي وسائر جسدي، بينما أفادي نفسي بيديَّ فقط:

- "تُغطي جسدك الآن بملاءة، يا للسخافة!"

وأردف صارخًا في وحشيةٍ وجذلٍ شديدٍ:

- "الآن فقط... ستنالُ عقابك، ستموتُ ببطءٍ جديرٍ بغبائك، ستموتُ ألف مرة ولن تعدم الألم الذي تستحقه، لن تحذر ماذا أعددت لك من عذاب يا إيساف، ليس بذئبٍ أو بغربان، بل بهذا"

ومرَّت لحظةٌ، سمعتُ فيها صوت خوارٍ أرعبني أكثر من أي رعدٍ، وجدتُ شيئًا هائلًا يقفُ أمامي، بلغ سقف

الزنزانة طولًا، لمع جسده الأبيض في ضوء الشعلة، الدب... الدب نفسه الذي أنقذني من الذئب في الحلم الأخير، يُكشر عن أنيابه الآن، يخورُ في نشوة المقبل على وجبةٍ شهية، يقف برو بيني وبينه، ضاحكًا في خبثٍ يرمقني بتشفٍّ، ويقول:

- "لن تنفعك ملاءتك الآن، مخالبه ستنفذ مباشرةً إلى لحمك"

يربت برو على فرو الدب باعتدادٍ:

- "لا تنتهِ منه سريعًا، ولن تكون المرة الأولى فكابوسنا طويييييل"

ويُغادر برو الزنزانة تتعالى ضحكاته الشامتة، تاركًا الدب الأبيض يخور ويزوم، وكأنني أفكر في الهرب منه أو حتى مقاومته، فعلها بي الإله القاسي، هنا في هذه الزنزانة وعلى الأرض المنقوشة نحو قبلة العذاب، كُتبت نهاية إيساف برصيصة، حلمًا كان أم واقعًا.. أنا في الجحيم، هل كان ينبغي أن أقاوم غرائزي.. أن أدفع إيرما ونائلة عني؟!.. أن أترك الشهوة واللذة؟.. وأقود نفسي لهنا؟

***

الْجُزْءُ الثَّانِي

صَدِيقٌ



- ١ -

كانت حياتي مستقرةً، خريج جامعي ينتظرني مستقبلٌ لا بأس به، معي مخطوبتي تُشاركني واقعي وأحلامي، في الواقع.. كانت أحلامي طبيعية!، حتى تغيَّر كل شيء وانقلبت حياتي البسيطةُ رأسًا على عقبٍ، وكل شيء بدأ بحلم، لم أرَ فيه نفسي أنا عبد الملك شريف مترجم اللغة اليابانية، بل رأيت شخصًا آخر، لم تربطني به العَلاقة التي تسمحُ بكل ما أحدثه من زلزلةٍ في عالمي، لكنني لم أره لمرةٍ واحدةٍ، بل لعشرين مرةً في حلم يتكرر يوميًّا!

في الليلِ الكاحل المُدلهمِّ، أرى الذئب يُطارده ولا يرحمه، أراه يعدو نحو الجرف هناك حيث البحر في الأسفل يهدر مرعبًا، أراه يصرخ وأسمع من ينادي باسمه.. ربما أكون أنا؟! أناديه مُشفقًا على مصيره اليومي كعذابات الأساطير والخرافات.

في الليلـة العشريـن، رأيـتُ دبًّـا عملاقًـا ينقـذه، ينتشـله مـن الأرض انتشـالًا ويـولّي بـه فـرارًا مـن الذئـب، لكـن لحظـة.. الـدب.. الـدب لا يعـدو نحـو الأمـان، بـل إلى الجـرف نفسـه، المسكين تمسك بمنقـذه الأعمـى، ورأيـت الـدب يسـقط فـاردًا ذراعيْـه كأنـه الخـلاص، واقـترب المشـهد نحـو حافـة الجـرف.. لأرى المسـتغيث مـن الرمضـاء بالنـار.

لم أبـصر أحـدًا يسـبح أو يـضرب المـاء، غـاص الاثنـان بـلا عـودةٍ، أم لعـل الـدب أغـرق المسـكين الـذي وثـق بـه؟! وهنـا ينتهـي العـرضُ.. لأكمـل عشريـن ليلـةً مـن مشـاهدة عـذاب محمـود، هكـذا كان اسـمه كـما عرفتـه منـذ عامـين ونصـف، محمـود مصطفـى أو كـما اشـتهر بـين أصدقائـه منـذ حداثتـه بأغـرب اسـم شـهرة ذي طابعٍ شـعبي سـهل الحفـظ كـ(حنتيرة) و(توشـكى) ومـا شـابه، مـع أن الاسـم تشـيكي الأصـل! فعـلًا... كان الذئـبُ يُطـارد محمـود كافـكا في أحلامـي كل ليلـةٍ.

***

- ٢ -

الكل يمزحُ.. يأكلُ.. يصخبُ ويُعلن حريته على الملأ، غُصت باحةُ الكلية بالطلبة في كل أرجائها، في مجموعاتٍ من ثلاثة أو أكثر، غايتهم الاستمتاعُ الأقصى بهذه الاستراحة القصيرة من محاضرات اليوم، خاصة أنها- المحاضرات- لم تكن تعني لأكثرهم شيئًا رغم اختلاف دراستهم وكلياتهم، هنا فقط يجتمعُ الطبيب بالمهندس بالمحاسب بالمحامي، هنا فيما يجبرون على حضوره ويُسمى (التربية العسكرية).

كانت دورةً مكثفةً من أسبوعين، هدفُها تعريف الجنس الخشن من الطلبة بمبادئ العسكرية، طوابير الصباح حيث الحضور المبكر و(قيافة) الملابس الموحدة، صفا... انتباه.. صيحات وطنية لتحفيز الجموع على رفع أصواتهم عند تنفيذ الأوامر وتحريك أقدامهم وأياديهم بأسرع وأقوى ما يُمكن، كانت الدورةُ تعني مللًا لا نهاية له لأغلب الذين

لم يعتـادوا حيـاةً كهـذه، مـع إلغـاء مصطلـح الهواتـف الخلويـة مـن قاموسـنا تمامًـا، وطبعًـا كان سـماعُ صـوت الهاتـف يعنـي الطـرد وإعـادة الـدورة بـلا نقـاشٍ.

في هـذا اليـوم رأيتـه، منزويًـا هنـاك في ركـنٍ وحـده، يجتمع الآخـرون برفاقهـم، ويجتمـع هـو بكتابـه الضخـم ممسـكًا بدفتيْـه غارقًـا في عـوالم أخـرى، جذبنـي مشـهده حـين مـررتُ بـه، ولم أقـاوم عـادتي السـيئة بالنظـر لغِـلاف كل كتـابٍ أراه، حـين تكـون دراسـتك مثـلي تجـد نفسـك تفتـش عـن الكتـب الجيـدة مـا سـمحت لـك الظـروف، فقـط لأقرأهـا باليابانيـة وأسـتزيد مـن الخـبرة والعلـم، وحـين لمحـت غِـلاف الكتـاب، أدركـتُ أننـي لـن أفـوتَ فرصـة الحديـث مـع هـذا الشـخص حتـى لـو انتهـت الاسـتراحة الآن، اقتربـت منـه هاشًّـا باشًّـا، أشـير لكتابـه بادئًـا الـكلام:

- "معـذرة... هـل لـي أن أسـألك عـن رأيـك فـي هـذا الكتـاب؟"

يرفعُ رأسه ناظرًا لي ببسمة من وجد شيئًا يسعده:

- "بالطبع.. تفضل أولًا!"

أشـار لجانبـه لأجلـس، فعلـتُ بينـما أغلـق هـو الكتـاب بعدمـا وضـع تذكـرة مـترو حيـث توقـف عـلى سـبيل الــ bookmark، مــدَّ يــده مصافحًـا

- "محمود مصطفى... هندسة ميكانيكية"

- "عبد الملك شريف... ألسن لغة يابانية"

- "هكذا... عرفتُ سرَّ انبهارك بالكتاب"

- "بالطبـع... لا يقابـل المـرء كل يـوم مـن يقـرأ لهاروكـي موراكامـي مثلـك!"

- "ولا يُقابـل المـرء كل يـوم مـن يـدرس تلـك اللغـة المعقـدة كالعربيـة! موراكامـي غنـي عـن التعريـف لـكل متابـعٍ لـلأدب العالمـي... هـو الأشـهر بيـن مواطنيـه".

أشرتُ للكتاب الراقد بين يديْه، وقلتُ:

- "صحيـح... والآن مـا رأيـك فـي روايتـه الأشـهر... (كافـكا علـى الشـاطئ)؟"

ألقى محمود قنبلته فورًا:

- "لـم أحبهـا... فقاعـةٌ أدبيـةٌ جميلـة المنظـر.. ممتلئـة بمحـض هـواء.. أو ربمـا فارغـة تمامًـا!"

اتسعت عيناي للحظةٍ، الرواية من عيون الأدب الياباني، بل لعلها أشهر وأنجح رواية يابانية في وقتنا الحالي، بيع منها آلاف النسخ، لاحظ محمود دهشتي فكتم ضحكاته، وأردف:

- "أعرفُ ما تُفكر فيه... إما أنني عبقري أو أغبى من سمك التونة الذي في الرواية! على كلِّ حال.. هذه قراءتي الثانية لها حتى أريح ضميري في الحُكم".

زادت دهشتي، الرواية هائلة الحجم بالفعل، أكبر فقاعة أدبية في العالم لو صحَّ كلامه.. ويُعيد قراءتها ثانية رغم أنها لم تُعجبه! سألته عن قراءاته اليابانية الأخرى:

- "لم أقرأ سوى (نُعاس) لموراكامي أيضًا، وهذه راقتني كثيرًا، على كل حال لم أشتر (كافكا على الشاطئ) إلا بعد تفكيرٍ عميقٍ خشية أن تكون أقل من المتوقع كما حصل، لكنني في النهاية فعلتُ واشتريتها لأن... في الواقع هناك عَلاقة ما بيني وبين تلك الرواية!"

- "عَلاقة؟!... أي عَلاقة؟"

وهنا ارتفع صوتٌ يهتفُ:

- "كافكا... ستبدأ المحاضرةُ الأخيرةُ.. بسرعة يا كافكااااااااااااااا!"

كان صوتُ أحدهم ينادي محمودًا... يُناديه بكافكا!، باسمًا سألته بينما نقفُ معًا لنلحقَ بالمحاضرة:

- "أنت مشهورٌ بين رفاقك باسم كافكا؟ معقول؟.. يُنادونك هكذا!"

- "منذ كنتُ في الصف الخامس الابتدائي! لكني لم أسمِّي نفسي به كما فعل بطلُ الرواية، رآني أصحابي أقرأ روايات فرانز كافكا وقتها.. فسمُّوني هكذا! تحوَّل الاسم مع الوقت للطابع الشعبي العادي!وكأنه(مانجا)أو(سامبا)أو حتى(حنتيرة)!"

ابتسمنا معًا حيث وصلنا لباب المدرج ودلفنا منه مع المُسرعين، جلسنا متجاوريْن نقتنص الدقائق الأخيرة قبل الصمت التام أثناء المحاضرة، لاحظت أنه قال (مانجا) بمعنى الفاكهة، فقلت باسمًا:

- "على كل حال... المانجا عندنا في اليابانية أيضًا!"

كنتُ أعني المانجا في اليابان، وهي القصص المصورة هناك، ردَّ محمود بثقةٍ:

- "بالطبع.. وعلى ذكرها.. أحببتها أكثر ما أحببتُ أدب ذلك البلد"

العالم كله يعشق المانجا في الواقع، والأهم منها.. المسلسلات المأخوذة عنها المسماة بالأنمي، قلتُ مراقبًا باب المدرج آملًا في مرور الوقت أكثر بلا محاضرةٍ:

- "تعني كونان وناروتو و Death note ؟"

- "بالذات كونان... ذلك العبقري الصغير الكبير! مع أن الحياة لا تُشبه قصصه أبدًا".

- "فعلًا... مِن الصعب أن تشبهها!"

واستمرَّ حديثي الشائق مع محمود، من حُسن حظي أنني قابلته ذلك اليوم، ولم يقطع حديثنا الحذِر أحدٌ، حتى صار الأملُ كبيرًا في...

- "انتباااااااه... سيادة الرائد مشغول... المحاضرة ألغيت و..."

- "هيييييييييييييييييه!!"

- "انتبااااااااااااااااااااااااه، وإلا.... فليخرج الجميعُ بهدوءٍ والطابور غدًا في موعده!"

- "........هييييييييييييييه!!"

مرحى! خرجتُ ومحمود والضحكات لا تنتهي بذاك الخبر الجميل، نهتفُ مع الهاتفين السعداء! وأكملنا حديثنا

حـول الأدب، تعارفنـا بأكـثر مـما يسـمح اللقـاء الأول وتكـررت جلسـاتنا في الأيـام القليلـة المتبقيـة مـن الـدورة، وبعدمـا انتهـت الـدورة صـار لقاؤنـا صعبًـا، لكننـا حافظنـا عليـه كل عـدة أشـهر، زيـارات بالصدفـة منـه لكليتـي أو العكـس، حفلة هنـا أو نشـاط طـلابي هنـاك، مـع هـذا لا أظننـا تقابلنـا بمـا يفـوق أصابـع اليـد الواحـدة عـددًا.

هكـذا لم أقـترب كثـيرًا مـن كافـكا، ظلـت العَلاقـة سـطحيةً إلى حـدٍّ كبـيرٍ، لم تتعـد الاهتمامـات الثقافيـة مـن أدبٍ ولغـةٍ ومـا شـابه، لكنـي أدركـتُ حقيقـةً أكيـدةً، هـو غريـب الأطـوار عجيبهـا، ليـس مـن النمـط الـذي تُطلـق عليـه (اجتماعـي) بضمـيرٍ مسـتريحٍ، كـما رأيتـه أول مـرة، ينتبـذ مكانًـا ليكـون وحـده بعيـدًا عـلى العيـون، كنـتُ أشـعرُ أحيانًـا أنـه يتجنـبُ مقابلتـي، فأنـا مـن أسـعى في كل مـرة لأقابلـه، لم يتهـرب منـي أبـدًا حـين أطلبـه، لكنـه لم يُعاملنـي بالمثـل لمـرةٍ واحـدةٍ.

لهـذا كانـت القطيعـةُ بينـي وبينـه، هـي تلـك الغيبـة التـي تطـول بـين الرفـاق ممـن جمعتهـم الظـروف، وحـين تنتهـي تلـك الظـروف يكـون انقطـاع الأواصر سـببًا محتومًـا للفـراق التدريجـي، تقـلُّ المقابـلات والمكالمـات شـيئًا فشـيئًا حتـى تنعـدم، هـو أيضًـا سـاعد في ذلـك بانعزالـه وميلـه للوحـدة كما أخبرتـك، وهكـذا اختفـى كافـكا عـن ناظـري وذاكـرتي حتـى

تخرجتُ في الجامعة وعملت مترجمًا بإحدى الشركات، هو الآن ينقصه عامٌ واحدٌ على التخرج.

لكنه عاد ليظهرَ في حياتي ثانية، في أحلامي على سبيل الدقة، ولعشرين يومًا حتى الآن، مع ذئبه ودبه كل مرة، لم أحبذّ الاتصال به مع الأيام الأولى، لكني مع الحلم السابع بدأتُ أسعى إليه، ضعْ نفسك مكاني، اليوم السابع مميز دائمًا على كل حال، لكن نيتي للاتصال لم تُكلل بالفعل، فرقم هاتفه ذهب مع هاتفي المسروق! لا أعرف عنوانه بالتفصيل، بريده الإلكتروني مُغلق على الدوام، لا فيس بوك، ولا أعرف صديقًا معينًا له، وحتى لو تذكرتُ وجه صديقه المقرب الوحيد الذي رأيته معه ذات مرة، فكيف عساني أجدُ هذا الصديق الآن؟!

في اليوم العشرين، سقط محمود في البحر أخيرًا، هوى مع الدب.. أو ربما أسقطه الدب كما شعرتُ أنا، صحوتُ غارقًا في العَرق، أشعر بأثر دبلة الخطوبة الضاغطة التي طوّقت بنصري منذ أيامٍ، محمود... أين أنت؟.. ماذا بك؟.. ماذا يجري لك؟! وكيف السبيل إليك؟! وهنا تذكرت... هاتفه، مكتوب على كارت التربية العسكرية، هببتُ من سريري أتذكر، أين ذلك الكارت؟ نعم... في

كتاب موراكامي الذي قرأته وقتها بوحي من محمود، رواية (الغابة النرويجية).. لكن أين مكانها الآن؟!

لساعةٍ كاملةٍ شرعتُ أبحثُ عن الكتاب وسط أكوام كتبي، رموز (الكانجي) اليابانية على الأغلفة تتلاقى أمام ناظري، تذكرت شكل الكتاب، الفتاة الواقفة وسط الغابة و... وجدته، الكارت... الرقم، والتقطتُ الهاتف الخلوي من فوق الكومود، الساعة تخطت الثانية عشرة ليلًا، ليس مهمًّا، لكن.. أيردُّ الآن بعد سنتين ونصف وفي هذا الوقت؟ أيبقى الرقم رقمه.. و... جرس!... جرس الهاتف!

رنة.. رنتان... ثلاثة، رُدَّ يا محمود.. رد يا كافكا أو كُفَّ عن الظهور في أحلامي.. رد أرجوك!...

- "ألو"

صوتُ امرأةٍ كبيرة نسبيًّا... أصمتُ لوهلةٍ، أتنحنحُ وأرد كاتمًا لهفتي:

- "محمود.. أليس هذا هاتف محمود كافكا... أعني محمود مصطفى؟!"

- "أنت صديقه؟"

هكذا ردت المرأة بصوتٍ كسيرٍ واهنٍ.. بل صوت أقرب إلى البكاء:

ـ "نعم.. أنا صديقه... أين هو.. أيمكنني التحدث معه؟"

ـ "هو بجانبي... محمود.. محمود.."

وانخرطت المرأةُ في البكاء الحار! معقول؟ لا.. لا تفعلها يا محمود... هل كان الدب يعني.. يعني.. وفي نفس اللحظة؟!! بعد سنتين ونصف يا محمود؟! وأغلقتُ الهاتفَ مذهولًا تلمع عيناي بدموعٍ حبيسةٍ، لم أعرف أني بهذه الشفافية، وأحلامي تقتربُ من الواقع هكذا!، ليتني اتصلت بك مع أول حلم وحذرتك يا كافكا، الحياة أحيانًا تُقدم لنا مواقف كهذه.. تندرج تحت بند الغرائبيات وما وراء الطبيعة، كان ينبغي أن أعرف!.. أن أُصدِّق أن ثمة أمورًا غيبيةً و.. رنين الهاتف، ينتزعني من خواطري، هل كنت لأتوقع أن الحياة بعد هذا الرنين قد تُصبح واحدةً من قصص كونان التي يكتبها جوشو أوياما ويصير عالمي كله يتلخص في كلمتين هما محمود وكافكا؟

***

-٣-

أنظر في الهاتف... تتجمَّد دموعي للحظةٍ، رقم محمود ثانيةً... أبتلعُ ريقي بصعوبةٍ:

- "أ.. ألو؟!"

- "يبدو أن الخط انقطع يا بني... أنا والدة محمود"

ابتلعتُ ريقي ثانيةً.. هناك غصَّةٌ في حلقي بدأت تزول:

- "هل محمود بخير؟!"

تصمت أم محمود... تتمالك نفسها وتُجيبني:

- "بخير.. بخير يا بني"

أتنفس الصعداء... أقول كمن أنقذوه من الغرق:

- "تقولين إنه بجانبك يا أمي... هل أستطيع الكلام معه إذن... أم أنه نائم؟"

- "لم تُخبرني باسمك يا عزيزي"

عرَّفتها بنفسي وبعلاقتي بكافكا، قلت إنني تذكرت محمود الآن وأحببتُ أن أكلمه قبل أن أنسى، الوقت متأخر لكنه سيُقدر ذلك حين يُكلمني و...

- "إذن فأنت لم تعرف بعد يا عبد الملك"

- "لم أعرف ماذا؟!"

- "محمود... محمود في المستشفى الجامعي.. راقد في غيبوبة"

- "غيبوبة؟!"

كررتُ الكلمةَ كأنني لم أستوعبها.. فعلًا لم أفعل، قالت بمرارةٍ:

- "هو الآن.. كالميت، لكنه ما زال على قيد الحياة"

وعادت الأم للبكاء والنهنهة.. فيما فغرتُ فمي أتفكر في هذا الموقف العجيب، غيبوبة... ميت... على قيد الحياة؟

***

تأملتُ محمود مليًّا على سريره في المستشفى الجامعي، كالنائم فعلًا، لولا الخراطيم والمعدات الطبية العديدة التي تُحيط به، زاد عمره عدة سنوات، فعلت فيه الغيبوبةُ ما فعلت... والمرض، المرض؟... أي مرض هذا؟!، والداه جالسان معي في صمتٍ، يرمقان وحيدهما ويرمقانني بشيء من الامتنان بين الحين والآخر.

خرجت دمعتان رغمًا عني... يا لسخافتي، يبدو أنني تأثرت حقًّا بطباع اليابان ومغالاتهم في المشاعر، لمحتني الأم فانهمرت دموعُها من جديدٍ، وظل الأب ساهمًا في نظره لابنه، اعتذرت لهما فتقبلا مني بهزِّ رأسيهما نفيًا، لم آتِ لأزيد من جزعهما، كان لا بد لي من السؤال، انتظرتُ اللحظة المناسبة وسألتُ الأم، بعينين مُحمرَّتيْن كليلتيْن نظرتْ لابنها وطفقتْ تحكي، انتبهتُ لكلماتها بكل حواسي.

حكت الأم نصف الثكلى، حكت عن ابنها طالب الهندسة، كيف قضى عامه الأول والثاني سعيدًا بالدراسة والكلية، بل كان عامه الثاني أسعد ما يكون حين حصل على تقدير جيد جدًّا متأخرًا عن الامتياز بدرجاتٍ قلائل، ذكرتْ أن ابنها كان يُقدس تقدير الكلية، كان يعتبره مقياسه الوحيد للسعادة وجدوى الأيام، بعدها حدث ما حدث، تعثر الطالب السعيد، تعثَّر حتى نال المقبول مع

الرسوب في مادتين في السنة الثالثة، وكيف أنها- الأم- لامته برفقٍ وطلبت منه التعويض للعام التالي، حكت كيف قضى عامه بعدها كالهائم في عالمٍ آخر، نظراته كمجذوبي الحسين أو العباقرة المهووسين، ينسحب من حياته العادية بالتدريج ليغرقَ بين الكتب والدراسة ولا شيء سواهما، الوقت كله للمذاكرة، يقتطع بالكاد ما يكفي للطعام والحمَّام والكلمات المقتضبة مع الأهل، لا أصحاب... فقط الكتب هي أصحابه، كتب الدراسة فقط لأنه قاطع الأدب، الكتب المقررة لم تعد كافية، والمراجع ملأت مكتبته الصغيرة التي لم تكفِ هي الأخرى، حاول الوالدان إخراجه مما هو فيه لكنه كان سعيدًا، يبتسم ويؤكد أنه ليس ثمة حال أفضل مما هو فيه.

كالمتوقع، بل بما فاق المتوقع، حقق محمود الامتياز في كل المواد، لم ينقص سوى خمس درجات فقط! كلها درجات تقديرية لا علاقة لها بمجهوده، الأول على دفعته بلا جدالٍ، بل الأول بهذه الدرجة في تاريخ الكلية، أصابت الدهشة العارمة كل أساتذته، هذا ليس بإنسانٍ، هذا أينشتاين.. ربما الخوارزمي، لا شيء آخر.

ماذا حدث بعد هذا... لا شيء... لا شيء ألبتة، وجدناه منكفئًا على مكتبه غائبًا عن الواقع، نقلناه للمستشفى...

شاهده من شاء الله من الأطباء، كلهم أعلنوها بدهشةٍ وعجزٍ، صدمة أدت لغيبوبةٍ، وهل الصدمات تؤدي لغيبوبة؟ وأي صدمة هذه.. أي صدمة لطالب هو الأول... هو الأفضل على الإطلاق، لم نفهم ولم نعرف ماذا حلَّ به وكيف حلَّ، وعرفنا أن محمود ليس وحده في هذا، كثيرون حول العالم غائبون منذ سنين... بل منذ عقود، لكن هل يتخيل المرء يومًا أن يصيب ابنه ما أصاب محمود....؟

***

جلست بجانبه مفكرًا، لم يعد لبقائي فائدة، كافكا... أين أنت الآن؟ وما الصدمة التي نالت منك، هي صدمة نفسية ولكن... مَن لنا بمعرفتها الآن وأنت معنا بالجسد فقط، أما النفس فالله وحده الأعلم بها، حانت مني التفاتة فرأيت شيئًا ينتمي إليك على الكومود بجانب سريرك، حتمًا ينتمي إليك، رواية صغيرة الحجم عرفتُ في غِلافها رسومات جمال قطب المتقنة، كانت لنجيب محفوظ، بحروفٍ مرسومةٍ بتفننٍ بديعٍ كُتب اسمها... حديث الصباح والمساء.

تلاحظ أمك نظراتي للرواية، ترد في وهنٍ:

ـ "كانـت آخـر مـا قـرأ قبـل... حيـن كان يقـرأ غيـر الهندسـة"

تصفحتُ الروايـة، روايـة عجيبـة بحـق لـذاك الأديـب الأعجـب، شـخصيات كثـيرة حـكي عنهـا محفـوظ، لـكل شـخصية صفحتـان أو ثلاثـة في مـا يُشـبه سـيرةً ذاتيـةً مختـصرةً جـدًّا معنونـةً بحسـب اسـم صاحبهـا، الروايـة محـض قامـوس كبـير لشـجرة عائلـة عاشـت منـذ الحملـة الفرنسـية وحتـى حـرب السـادس مـن أكتوبـر، كنـت أعـرف فكـرة عـن الروايـة بحكـم قـراءتي للكثـير مـن أعـمال محفـوظ المترجمـة، الروايـة تجعـدت صفحاتهـا مـن كـثرة القـراءة، في الغِـلاف الأمامـي، كتـب محمـود كلـمات قلائـل:

ـ "بدأتها في ٢٠١٥/٤/٢٢"

والغِـلاف الخلفـي... هنـاك كلـماتٌ أخـرى عـن تاريـخ إنهائـه للروايـة و... وهنـاك رسـمة.. رسـمة اسـترعت انتباهـي، حدقـت بهـا لخمـس دقائـق كاملـة... و.. فـورًا هتفـتُ:

ـ "أمي.. ما هذا الرسم؟... أمحمود من رسم هذا؟"

استغربت الأم لهفتي في السؤال، وقال الأب منزعجًا:

ـ "هو رسمه بالفعل... هل من مشكلة؟!"

ـ "متى... متى رسم هذه الرسمة؟"

ـ "كان يرسمها كثيرًا في كتبه ودفاتره منذ زمنٍ"

ردت الأم ولم تفارق الدهشة محياها إثر تغيُّري المفاجئ، لكني كنتُ أشد منها دهشةً بأضعاف مضاعفة.

الرسمة... عجيبة حقًّا، تحسبها في البداية تُمثل فراشة فضية بالقلم الرصاص، جناحين كبيرين متجاورين، أسفلهما جناحان أصغر، الرسمة متماثلة كفراشة تفرد جناحيها بالفعل ولكن... دقق النظر معي قليلًا، الجناحان الكبيران.. كل منهما يُمثل شكلًا منفردًا، رسمًا مستقلًا يُمثل حيوانًا، لم أعرف أن كافكا كان مولعًا بالرسم، لكني عرفتُ الآن أني قد كُشف عني الحجاب!

أين كونان الآن.. أين شيرلوك هولمز.. بل أين رفعت إسماعيل؟ فلتحضروا جميعًا يا سادة وتشاركوني حيرتي!!

فالجناح الكبير الأيمن كان ذئبًا...

والجناح الأيسر كان... كان دبًّا!!

دب وذئب!... و... وما العمل الآن؟!!

***

ـ ٤ ـ

دُبٌّ وذئبٌ ومحمود كافكا، وأحلام عجيبة تستقرئ الواقع، حلمي ليس كأي حلم عابر إذن، محمود يرسم دبًّا وذئبًا، فيطارداه في حُلمي؟! ولماذا الدب والذئب بالذات؟.. محمود كان يُعاني، يبدو هذا من حلمي، هل له معنى آخر؟!

و... لحظة، جناحا الفراشة السفليان، أصغر قليلًا ليُعطيا شكلًا أجمل للفراشة، حدقت بهما طويلًا فوجدت.. وجدتهما قطًّا وغرابًا! مهلًا!.. هل من حيوانات أخرى؟! منذ متى ومحمود يرسم هذه الأشكال و... ثمة سؤالٌ آخر هنا ينبغي أن أسأله:

ـ "أمي.. من فضلك.. منذ متى ومحمود في الغيبوبة؟"

حدَّق بي الأب في كراهيةٍ! فقد ذكرت حالة محمود بكل وضوحٍ في حضرة أمه المكلومة:

- "آسف.. لم أقصد، كل ما أريده هو مصلحة محمود"

- "مصلحته؟... وهل سؤالك هذا يعني مصلحته في شيء؟"

قالها أبو محمود في غيظٍ مكظومٍ، وجدتُ نفسي أرد متلعثـمًا:

- "ربما، ولكن.. أخبرني فقط من فضلك!"

- "منذ عشرين يومًا.. ارتحت الآن؟!"

أجابني الأب في نفاد صبرٍ.. وبشيء من الحدة، لا يا عمي، لم أرتح.. ويبدو أنني لن أرتاحَ لوقتٍ طويلٍ.

***

لم يزرني كافكا منذ أسقطه الدب في البحر، فقررتُ أنا زيارته! بعد شهرٍ كاملٍ من زيارة المستشفى، وجدتني واقفًا أمام باب شقته... أتأمل الباب بعمقٍ! أتأمل الباب؟!!.. ولم لا أفعل؟!! لقد بقيت لربع ساعة كاملة أحدق ببنايته وشارعه، بعدما تبعت أمه في المواصلات حتى بيتهم دون أن تلاحظني، ما الذي أفعله بالضبط؟ هل جُننت أنا الآخر؟! لا.. لم أُجن، كافكا إصابته نفسية ولا شك.. فلنتحرَّ الآن ما تبقى من نفسه!

ولامتني نفسي للمرة الألف، تتحرى؟!.. هل تحسب نفسك المُحقق كونان بالفعل؟ وحتى لو افترضنا هذا...

أين الجثة؟... أعني أين النفس التي ستتحرى عنها، قلنا هذا من قبل و... و..

"ترررررررررررررررررررررررن"

أخرستُ نفسي اللائمة بكبسي لجرس المنزل، والآن فلأستعد بما سأقوله لأمك يا كافكا:

- "أمي.. ابنك كافكا- نعم يُسمونه كافكا- يُعاني من مشكلةٍ نفسيةٍ ولا شك، أعني كان يُعاني... أعني ما زال حتمًا يُعاني لو كان بيننا و...، المهم أنني حلمتُ بابنك يُطارده ذئبٌ ودُبٌّ! تخيلي هذا يا سيدتي.. ذئب ودب كاللذين يرسمهما كثيرًا، هل يعني هذا شيئًا؟! بالطبع.. ليس الأمرُ صدفةً وهذا يعني أنني لا بد أن أبحث فيما خلفه محمود وراءه لأعالجه من مرضه، أنا ألسن ياباني ولكني أفقه قليلًا في علم النفس من قراءاتي المترجمة فيه و... كلامي مقنع.. أليس كذلك؟!"

- "تررررررررررررن... ترررررررن... تررررن"

لا رد... يبدو أن القدر يُريد إنقاذي من لوثتي، فلأفرَّ الآن قبل فوات الأوان!

***

ـ ٥ ـ

ـ "عبد الملك... أهلًا و... إلى أين تذهب؟"

تفتح الأم الباب بينما ألوذُ بفرصة الهرب، عدتُ وقلتُ في ترددٍ:

ـ "فـ.. في الواقع، خفتُ أن تكوني غاضبةً مني!"

تربت على كتفي في امتنانٍ:

ـ "لا تقل هذا... ولكن.. لماذا أتيتَ؟! محمود ما زال.. هناك"

ـ "أعرف يا أمي... سأخبرك بكل شيء.. هل عمي بالداخل؟!"

ـ "هو نائم.. كنا ننوي الذهاب لمحمود ليلًا.. أنت تعرف، لا يمكننا ترك أعمالنا.. ولكن لماذا نتحدثُ على الباب؟ تفضل يا عبده... كيف تُحب شايك؟"

جلستُ على أحد كراسي الردهة، أشعرُ بهواء مروحة السقف يُطيب مسامي بعد صهد الشارع، وأفكر في أفضل ما يمكن قوله:

- "لا داعي يا أمي.. أرجوك اسمعيني فقط... كافكا... أعني محمود زارني في الحلم"

كست ملامح الأم الفرحة فورًا:

- "حقًّا؟!... زارك؟... وكيف كان؟"

- "هو بخير.. لا أذكر الحلم للأسف... لكنني... لكنني فكرتُ في طريقةٍ لأساعده بها"

بانت المرارة على وجهها ببطءٍ:

- "تساعده؟!.. كيف يا بني؟! محمود الآن مصيره بيد الله وحده، لا يعرفون سببًا لغيبوبته، مع هذا قد يفيق في أي لحظةٍ"

وأضافت بحسرةٍ:

- "وربما أيضًا بعد شهورٍ أو... "

- "أمي... أنا قادرٌ على المساعدة لو سمحتِ لي فقط!"

- "أنـت لسـت طبيبًـا يـا عبـده علـى مـا أذكـر!.. مـاذا تقصـد بالضبـط؟"

- "محمود... محمود مُصابٌ بعملٍ سفلي يا أمي!"

***

الصدمـة.. الصدمـة وحدهـا تملّكـت أم محمـود، بيـد أن صدمتـي لم تقـل عنهـا في شيء! كيـف خـرج منـي هـذا التبريـر؟! وكيـف وردت هـذه الفكـرة في ذهنـي في لحظـةٍ واحـدةٍ؟!! كنـتُ في حاجـةٍ إلى تبريـرٍ وجـرى عـلى لسـاني في الوقـت المناسـب، أسـعفني بـه عقـلي فقـط، لكنـه أحـدث التأثـير المنشـود، رفعـت الأم الجزْعـى يدهـا لتغطـي فمهـا إثـر المفاجـأة:

- "عمل.. عمل سفلي؟! ما الذي تقوله؟!"

فلتكمـل عملـك الآن للنهايـة يـا عقـلي النـيِّر، أتحفنـي بالمزيـد:

- "معظـم حـالات الغيبوبـة تنشـأ عـن الحـوادث العاديـة، حادثـة سـير تـؤدي لإصابـةٍ بالغـةٍ بالـرأس، ينتـج عنهـا الغيبوبـة، أمـا ولـدك فلـم يصبـه شـيء، الأمـرُ يُثيـر الشـك.. هـه؟ فلنفكـر بشـيءٍ آخـر، السِّـحر مذكـورٌ فـي

القرآن الكريم، ابنك نابغة وعبقري، أعداؤه كثيرون ولا شك، حسَّاده ومنافسوه، أساتذته الذين استاءوا أن يهزمهم طالب لديهم!"

كلامي عن أعداء محمود يبدو مُبالغًا فيه، لكن الأم الواهنة تمسَّكت بخيط الأمل الوحيد الذي رماه لها مجنونٌ مثلي:

- "لا أدري يا بني.. فكرنا في الحسد بالفعل، أجرينا الرقية الشرعية وننوي عمل الحجامة، لكن السحر لم يخطر ببالنا قط، هل تعرف في هذه الأمور؟!"

بدا أن خطتي في سبيلها للنجاح، تشجعت أكثر... تذكَّرتُ كل ما سمعتُ وقرأت عن هذه الأمور:

- "بعض الشيء... هناك العمل المأكول والمشروب والمدفون، والعمل المكتوب على جلد قرموط! هناك السفلي والعلوي والربط و... والزايرجة.. نعم والكابالا طبعًا.. الكثير، لا أدري ما أصاب محمود بالضبط ولكن..."

- "ألم تقل إنه عملٌ سفلي؟!"

- "بـ.. بلى، هذا مجرد تخمين مبدئي، أحب فقط أن أتأكد"

- "وكيف ستتأكد؟"

- "بالبحث يا أمي.. أريد أن أبحث في أشياء محمود التي يحتمل أن يكون بها العمل، كتبه... دفاتره، كتاباته ورسوماته، تلك الرسمة تعني أكثر من مجرد دب وذئب.. بالطبع، أريد مقابلة أصدقائه والحديث معهم عنه، ومعرفة أعدائه... أريد، أريد أن أتحرَّى عن حياة محمود... وأبحث عن الخلل فيها"

أنهيتُ كلامي.. أصمتُ في انتظار الرد، وتصمت المرأةُ الكسيرةُ... تُنكس رأسها حائرةً مفكرةً، تقومُ وتتركني بلا كلمةٍ، ربما لتستشير زوجها، أو تحضره ليطردني بلا رجعةٍ.

كافكا.. سامحني يا صديقي، لا أدري هل خواطري حقًّا مُجديةٌ؟! أم هي محض هلوسة فكرية عقيمة، كل ما أعرفه.. أنني سأفعل هذا من أجلك، حلمك يُناديني لك ولعالمك، أودُّ أن أقترب منك ما كان ينبغي أن أقتربه قبل القطيعة بيننا، أريدُ أن أرى الدنيا بعينك أولًا... ولا أدري شيئًا عما بعد هذا.

- ٦ -

لم تتأخـر والـدة محمـود كثـيرًا، أقبلـت تمسـك شـيئًا بيمناهـا.. أهـذه بسـمةٌ حزينـةٌ تتلاعـبُ بشـفتيها أم...

- "تفضل يا بني!"

مـدَّت يدهـا المفتوحـة أمامـي، اسـتقرَّ بهـا هاتـفٌ خلـوي مُغـبر:

- "أهذا... هاتف كافكا؟"

تفتعل الأم ابتسامةً أكبر.. من أجل تشجيعي:

- "هـو بعينـه... لـم يعـد يـرنُّ كثيـرًا كمـا تعـرف.. عليـه سـتجد أرقـام معارفـه"

لانت أساريري.. وحانت مني ابتسامةٌ شرعيةٌ:

- "أشـكرك كثيـرًا يـا أمـي.. سـأفعل مـا بوسـعي... سـ.. سـأعيده.. أشـعر بهـذا!"

وكنــتُ أشــعر بهــذا فعــلًا! أشــارت الأم للغرفــة التــي دخلتهــا للتــو وقالــت بــودٍّ:

- "تلــك غرفتــه... لــم يمسَّــها أحــدٌ منــذ تركهــا.. وحيدنــا كمــا تعــرف، ابحــث كمــا تشــاء، أنــت الأمــلُ الوحيــدُ لــي الآن.. ربمــا تذكُّــرك لمحمــود جــاء فــي وقتــه، سـأعدُّ لــك الشــاي، بالمناســبة... هــل تعــرف عكــس كلمــة يابانــي؟"

***

غرفتــه... صغـيرةٌ تصلـحُ لشـخصٍ واحـدٍ، لكنهـا بـدت لي عالمًـا كامـلًا مـن الأسرار، هـل أبالـغ؟.. أبـدًا، نويـت أن أعـرف كل صغـيرةٍ وكبـيرةٍ في حياتـه.. هـل أقـدر؟ سـأبدأ بالقـراءة.. عشـق كافـكا الأزلي، مكتبتـه باهـرةٌ بـارزةٌ تحتـلُّ جـدارًا كامـلًا، ميَّـزتُ فيهـا كعـوب فرانـز كافـكا مـن بعيـدٍ، يُخصـص محمـود رفًّـا لـكل نـوعٍ.. هـذا للرعـب.. هـذا للفانتازيـا.. هـذا لـلأدب السـاخر، بـدأتُ بالـرفِّ العلـوي، بـه كتـبٌ منوعـةٌ لا تخـص شـخصًا بعينـه أو نوعًـا واحـدًا، تصفحـت أول الكتـب... عتيقًـا مهترئًـا:

"الفيزياء المسلية... الجزء الثاني... ياكوف بيرلمان"

الكتــاب الأشــهر والأعظــم في شرح الفيزيــاء ببســاطةٍ ممتعــةٍ، بالطبــع... فهــو مهنــدس.. مَــن مثلــه أولى بقــراءة

كتاب كهذا؟ الشخبطة والحواشي تملأ الكتاب، كافكا حتمًا من الأشخاص المولعين بملء أي فراغٍ يرونه، رسومات مفردة لذئاب ودببة فقط، لكن لا قطط أو غربان.. ولا فراشة كاملة، قصدت الصفحة الأخيرة، تاريخ الانتهاء من الكتاب.. يعود لسنةٍ فاتت، آخر أيام عهده بالأدب، أحضرتُ الكتاب التالي:

"البؤساء.. فيكتور هوجو"

"الشحاذ.. نجيب محفوظ"

"هاري بوتر وجماعة العنقاء... ج. ك. رولينج"

"الضفيرة السوداء... محمد عبد الحليم عبد الله"

"بيت الياسمين... إبراهيم عبد المجيد"

"القصص الحكيم... الفيلسوف إيسوب"

الروايات... حبه العتيد، كانت الكتبُ بترتيب القراءة حسب تواريخ الابتداء والانتهاء، إذن فهذا هو رفُّ القراءة الحالية لمحمود، أكملتُ الصف حتى وصلت لروايةٍ أخرى، كانت بعيدةً عن السابقة لها في وقت القراءة، هناك فترةٌ هجر فيها القراءة إذن، لكنه عاد إليها بقوةٍ حتى إنه أنهى خمس رواياتٍ في زمنٍ قياسي هو خمسة أيام بالضبط، وهي بالترتيب:

- السقا مات... يوسف السباعي
- منافي الرب... أشرف الخمايسي
- ملحمة جلجاميش
- مجلد نوفيلات... ليو تولستوي

والخامسة كانت حديث الصباح والمساء، كانت آخر ما قرأ كافكا كما ألمحت أمه، هل لهذا معنى ما؟! أسائل نفسي من جديدٍ، هكذا عرفتُ قراءات محمود الأخيرة، ما من كتبٍ أخرى قرأها بعد الحديث.. الغرفة لم تُمس منذ ذاك الوقت، ومكتبته لا أحد يقربها.

التقطتُ الكتبَ وتصفحتها، الدب والذئب في كلِّ مكانٍ ولكن.. القط والغراب، بدأ كافكا برسمها أخيرًا في السقا مات، ماذا عن الفراشة؟ وجدتها للمرة الأولى في ملحمة جلجاميش، إذن فالفراشة وُلدت مع تلك القصص، لماذا هاته الروايات الخمس بالذات؟ هل لهذا أي معنى؟

***

إلى مكتب كافكا و... المكتب! أو سطح المكتب المغطى بفرخٍ ورقي كبيرٍ.. لم يدعه محمود في حاله هو الآخر، ازدان برسوماتٍ هندسيةٍ جعلته جديرًا بمكتب نيكولاس

أوتـو نفسـه، مـع الكثـير مـن الفراشـات المليئـة بالدببـة والذئـاب والغربـان والقطـط!! عبـاراتٌ كثـيرةٌ بالعربيـة والإنجليزيـة وحتـى اليابانيـة كتبهـا كافـكا بـين الرسـومات في أنحـاء الفـرخ الورقـي:

"يجب ألا ألفظ الأكاذيب"... بالإنجليزية

"ثمة زهور لا تذبل أبدًا"

"قم للصلاة يرضى عنك الله"

"الكسل لذيذ بس مش مفيد!"

"حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف!"

"شو كانت حلوة الليالي والهوى يبقى ناطرنا"

"هناك حقيقة واحدة فقط"... باليابانية

"وكأننـي أعيـشُ في إبيقوريـا أو مزدكيـا أو فرويديـا أو بومبـي!!!"

عبـاراتٌ ليـس بينهـا أيُّ رابـطٍ، عـدا كلـمات أغـاني فـيروز المزخرفـة، لفتـت نظـري فقـط العبـارة الثانيـة والأخـيرة، فالثانيـة عبـارةٌ شـاعريةٌ ملهمـةٌ!.. يعتبرهـا زهـرةً لا تذبـل، محمـود لديـه جانبـه العاطفـي بـكل تأكيـدٍ، وبـكل كل التأكيـد.. سـيكون لهـذا الجانـب نصيـبُ الأسـد مـن بحثـي،

السرُّ كله هناك ولا بد من البحثِ عن الأنثى كما قال بونابرت، ماذا عن الجملة الأخيرة؟.. أربعة أماكن غريبة للعيش فيها! هل هي مدنٌ موجودةٌ بالفعل.. لم أسمع عنها قط، سجَّلتها سريعًا في المفكرة.

والآن لأدراج محمود الثلاثة في المكتب، الدرجان الأول والثاني ازدحما بالكتب والدفاتر بما فيها من رسومات الميكانيكا ومعادلاتها، لا تختلفُ عن ظهر المكتب في شيء، الدرج الثالث امتلأ بأشياء عديدةٍ تخص الحاسوب، أسطوانات مدمجة... فأرة... وصلات وذراعات ألعاب، مع الكثير من عبوات العطر الفارغة كأنه يهوى جمعها، فتحت دولاب كافكا، المعاطف الطويلة إياها التي تُذكرك بشيرلوك هولمز، أكثر من معطفٍ بكل الألوان، آليتُ تفتيشَ جيوبها سريعًا، لعلي أجدُ شيئًا مهمًّا، لم أجد سوى عبوة عطرٍ فارغةٍ كالتي بالدرج.. تلك التي تحتوي (بلية)، وهنا تذكرتُ... أنا نفسي رأيتُ هذه العبوة من قبل.. أفتحُها، أستنشقُ ما بقي من شذاها.. أتذكر!

***

- "كانت وجبةً مشبعةً حقًّا.. ومؤلمةً أيضًا... تبًّا لشطة الزيت.. وتبًّا للكشري الذي نصحتني به"

قلتها لمحمود، بينما أخرجَ هو عبوة عطر من جيبه:

ـ "أي خدمة؟.. والآن يدك لو سمحت!"

أُجيبه مشاكسًا:

ـ "سأسـمحُ مضطـرًا... هـي سُـنة علـى كل حـال... أريجاتــزوه"

يمسح بالبلية ظهر يدي..

ـ "ما رأيك؟"

أشتمُّها بعمقٍ:

ـ "فُل... أليس كذلك؟!"

ـ "تقريبًا!"

ـ "لـم تجـد غيـر الفُـل؟!... أنـت شـاب يـا حبيبـي.. أيـن الهيوجـو والسـكيب أو حتـى المسـك الإنجليـزي؟!"

***

عبـوة الفُـل الزجاجيـة هـذه، أهـي في جيبـه منـذ ذلـك الوقـت؟!.. مسـتحيل، هـو يُحـب العطـور إذن بدليـل أنقـاض العبـوات في درج المكتـب، لا بـد أن أسـأل أمـه عنهـا و... ويـلي! كيـف نسـيت أمـه، كيـف نسـيت سـؤالها عـن كل مـا

فـات وعـن اللغـز الأكـبر حتـى الآن... الرسـمة، فلأفعـل هـذا الآن و... وهنـا سـمعت زعيـقَ الأب، الأب الـذي اسـتيقظ أو أيقظتـه الأم لتخـبره بالضيـف، لا أشـعرُ أن الأب سـيقتنعُ بي و...

- "ماذا أتى بسي (زفت) هذا؟"

- "اهدأ يا مصطفى... اهدأ"

يعلـو صـوتُ الأبويـن، هنـا لا بـد أن ينخفـضَ صـوتي أنـا، قنعـت بالكنـز الرابـض في جيبـي، خرجـت مـن الغرفـة، كـدت أفتـح البـاب وأذهـب مـن نفـسي ولكـن.. لا بـد أن هـذا سـيُصعب موقفـي أكـثر، وقفـتُ في الردهـة هاتفًـا:

- "عمي... بعد إذنك... سأذهب الآن"

- "انتظر يا فتى!"

خرج الأبُ يرمقني في كراهيةٍ:

- "عمـل سُـفلي.. تقـول إنـه عمـل سُـفلي، لـمَ لا يكـون العمـلُ مـن صنعـك أنـت؟!"

- "مصطفى... أرجوك!"

تقـفُ الأم باكيـةً خلفـه، تنظـرُ لي معتـذرةً هامسـةً: (معلـش)

- "هو يريد شيئًا لا نفهمه، لماذا يبحثُ في أشياء محمود؟ لا نعلم أهو صديق أم عدو، اسمعني باحترام يا أستاذ عبد الملك... لا تُرِنا وجهك ثانية.. وإلا.."

***

-٧-

- "لا داعي يا عمي.. كنتُ مغادرًا بالفعل.. آسف على الإزعاج"

واتجهتُ نحو الباب بلا كلمةٍ أخرى، أنظرُ في الأرضِ أتصبَّب حرجًا، لكن هل ألومه؟! له الحق في ظنه، وإن كان لي الحق أيضًا في فعلي... كما أشعر! هل حصلتُ على ما يكفيني من عالم كافكا؟! ليس بعد... هاتفه، منبع أسرار حقيقي كنتُ محظوظًا بلقياه، انتظرت حتى ركبت الحافلة وجلستُ مستنشقًا الهواء الحار الرطب، أخرجت الهاتف، رأيتُ وجهي أول ما طالعت شاشته، فالخلفية كانت الكاميرا الأمامية نفسها... غريبة، ولماذا تكون الخلفية هكذا؟ بدأتُ أول بحثي في الأسماء عن كلمة (أمي) قبل كل شيء.

- "السلام عليكم... أنا عبد الملك يا أمي"

- "بني... آسفة حقًّا و..."

- "لا عليك أبدًا.. أنا الآسف.. أودُّ فقط أن أسألك عن بعض الأمور المهمة"

- "تفضل.. اسأل كما تشاء"

***

وسألتها عن كل شيء، بدأتُ بالرسمة ومعناها، قالت إنهما كثيرًا ما سألاه عنها ولم يُجب إجابةً شافيةً، قال إنه متأثرٌ بهاري بوتر وشعار مدرسته، أما الكائنات الأربعة في الفراشة فلا يعرفان عنها شيئًا، ماذا عن عبوات العطر الزجاجية؟ قالت إنه يُحب العطور كثيرًا منذ صغره ويحمل معه عبوةً في جيبه أغلب الوقت، السبب... لا نعرف، لن أسأل ولدي عن سبب حبه للعطور... هو يحبها وكفى.

لكن ماذا عن أصحابه المقربين؟ أخبرتني ما توقعته، كان ابنها وحيدًا بلا أصدقاء طيلة عمره باستثناء القليل، هناك صديقه الوحيد الذي يعدُّانه مقربًا له، إذ جمعتهما الصداقة في المدرسة منذ حداثتهما، رغم أن هذه الصداقة خفَّت كثيرًا حتى ليحسباها مُحيت تمامًا، منذ افترق كافكا وصديقه في المدرسة الثانوية وما تلاها من سني

الجامعـة وانشـغال كلٍّ منهـما بحياتـه، الجامعـة... بالتأكيـد كان لديـه زمـلاء محـاضرات و(سكاشـن) ومـا شـابه، الجامعـة تفـرض عليـك صداقـة أحدهـم أو زمالتـه عـلى الأقـل، أخبرتنـي باسـم واحـدٍ فقـط، لا شـك أنـه صديـق الجامعـة الـذي رأيتـه مـن قبـل، تضيـقُ دائـرة البحـث ولا أعـرف أهـذا في صالـح القضيـة أم ضدهـا!... قضيـة؟!.. قضيـة الفتـى الغائـب!

مـاذا عـن حـب الجامعـة يـا أمـي؟ أليـس لمحمـود فتـاة هنـاك؟ الفتيـات... لا يتكلـم معهـن بالطبـع فضـلًا عـن صداقتهـن، لا نعـرف لمحمـود صديقـة.. هـذا متوقـعٌ، أصحـاب محمـود... هـؤلاء هـم مفتاحـي لفهمـه، خاصـة صديـق الطفولـة هـذا، ينبغـي أن أقابلهـم وأسـتمع لهـم، معـي أرقامهـم كلهـا عـلى الهاتـف، سـألتها شـيئًا آخـر مهـمًّا... كتابـات كافـكا، كان يقـرأ كثـيرًا فـماذا عـن كتابتـه وتدويـن أفـكاره، تُخـبرني أنـه يرسـم فقـط عـلى حـدِّ علمهـما، لا فيـس بـوك.. لا كتابـات في موقـع الجامعـة، أنـا نفسي لا أذكـر شـيئًا مميـزًا قالـه لي عـن كتاباتـه، قـراءات وحسـب.

آخـر شيء.. مـاذا عـن الأماكـن الأربعـة؟.. إبقوريـا ومزدكيا وبومبـي وفرويديـا؟ ظنـت الأم أننـي أمـزح! هـي لم تعـرف أصـلًا أن أسـماء كهـذه كتبهـا ابنهـا عـلى مكتبـه ولـو عرفـت لمـا اهتمَّـت بسـؤاله! أنهيـتُ المكالمـة شـاكرًا، وبحثـتُ فـورًا

في النت عن الأماكن الأربعة، لم أجد شيئًا عن إبقوريا ومزدكيا وفرويديا، لكني وجدتُ آلاف النتائج عن (إبيقور) و(مزدك) و(فرويد)!! الأول فيلسوف غابر والثاني مؤسس ديانة مندثرة والثالث عالم نفسي بالغ الشهرة!! محمود اشتقَّ من أسماء هؤلاء أسماءً أخرى لمدنٍ يشعرُ أنه يعيش فيها! وماذا عن بومبي؟! بالبحث تبين لي أنها مدينةٌ حقيقيةٌ بالفعل كانت تشغلُ موقعًا من إيطاليا منذ قرونٍ واليوم هي مدينةٌ أثريةٌ! جميل.. كل هذا جميل، لكن... ماذا يعني كل هذا؟! عثرتُ على لغزك الأول الصعب يا كافكا.. ولا أظنه الأخير!

بحثتُ في الهاتف عن أي خيطٍ آخر، لا شيء.. هناك فقط مجلد الأغاني.. كثيرةٌ جدًّا، لكن لحظة... قائمة المفضل من الأغاني، لنرَ ذوقه في السماع.. لنرَ أي أفكار راقت له، قائمة قصيرة نوعًا:

"شباكنا ستايره حرير... شادية!"

"سألتك حبيبي... فيروز"

"طوق الياسمين... ماجدة الرومي"

"يا لاللي... محمد منير"

وانتهت القائمة، ذوقه كلاسيكي انتقائي، لم أفهم الكثير.. سأستمعُ للأغاني فيما بعد وأقرر، ربما خرجتُ منها بشيء، ينبغي الآن فقط أن أقابل أصحابه و.. هاتفي يهتزُّ في جيبي، لا بد أنها دعاء.. أردُّ مشاكسًا:

- " أناتا ني نك تسابيشيدس...و هذا يعني أفتقدك باليابانية على فكرة"

- "كيميمو..عرفتُ أن هذه تعني و أنا أيضًا !"

- "معقول.. تعلمتِ شيئًا باليابانية من أجلي؟"

- "ليت الياباني كله كيميمو فقط وليس أناتا نيبك سوفالديشس!"

- " يكفينا ان اليابانية و الأسبانية لغتان موسيقيتان يا حلوتي "

- "حمدًا لله أنني إسباني!"

اسمها دعاء، خطيبتي التي لم أدع فرصة اللحاق بها من يدي، لا أملك من حطام الدنيا شيئًا... إلا الأمل في الغد! وقد تفهَّم والدها ذلك، تحاكينا حتى وصلت لمحطتي ونزلتُ من الحافلة.

- "لم تُخبرني أين كنت اليوم"

- "أبحث عن سبب صدمة أدَّت لغيبوبة صديقي الراقد في المستشفى الآن حين زارني في الحلم لعشرين يومًا"

- "......"

- "لا عليكِ.. هذا تأثير الياباني فقط!"

***

-٨-

إلى سريـري.. بـلا أحـلامٍ كافكاويـة، رأسي عـلى الوسـادة، غـارقٌ في أفـكارهِ، غـدًا أقابـل صديقـه بعـد العمـل، أعنـي بعـد لقـائي مـع دعـاء، لكـن كيـف السـبيل للقـاء كل صديـق لـه؟ هـل حيلـة العمـل السـفلي تصلـح مـع هـؤلاء؟ هـل يشـكُّون في شـخصي كـما فعـل أبـو كافـكا؟ محمـود.. هـل مـا أفعلـه الآن لـه فائـدة؟ هـل أقـرأ في السـحر أو أستشـير مَـن يفهمـون في هــذه الأمـور؟!! لا لم أكـذب الكذبــة وأُصدقهــا ولكــن... أيكـون الأمـرُ خارقًـا للعـادة بالفعـل، ومـاذا عـن الحلـم؟.. الذئـب والـدب؟ مـاذا عـن الغـراب والقـط؟... والفراشـة؟

***

أنهيـتُ عمـلي للتـو، أتصـل بالرقـم الأول في طريقـي لدعاء، يأتينـي الصـوت ملهوفًا:

ـ "ألو... محمود؟.. أهذا أنت؟"

أُجيب بتؤدةٍ، واثقًا في كذبتي البيضاء:

ـ "لا... محمـود ليـس هنـا، أنـا الدكتـور عبـد الملـك، مسـاعد الأخصائـي النفسـي الـذي يُعالـج محمـود الآن، حضرتـك الأسـتاذ أحمـد جميـل صديقـه المقـرب؟"

ـ "أنا هو.. هل محمود بخير؟.. هل من جديدٍ في حالته؟"

ـ "بخير ولله الحمد.. أفاق من الغيبوبة و.."

ـ "حقًّا؟!... الحمد لله.. إذن يُمكنني رؤيته و..."

ـ "للأسـف يـا أسـتاذ أحمـد.. لـم تسـتقر حالتـه بعـد.. لـن تسـتطيعَ رؤيتَـه قبـل فتـرة نقاهـة مناسـبة، نحـن الآن نُحـاول تهيئتـه ليواجـه الواقـع الـذي غـاب عنـه طويـلًا، نريـد سبْر أغـواره وإدراك معاناتـه، أنـا مُكلـف بمقابلـة معارفـه المقربيـن لفهـم نفسـية كافـكا عبـر آرائهـم، فهـل يمكننـي مقابلتـك اليـوم؟"

ـ "فهمت ولكن.. اليوم؟ هناك مشاغل عديدة و.."

ـ "لن تستطيع مقابلتي إذن..."

ـ "سأكلمك إذا استطعت، أنت تعرف ضغط العمل"

***

صديـقُ الطفولـة لديـه مشـاغل، لا بـأس.. لنُجـرب صديـق الجامعـة.. مُهنـد حمـدي

- "محمود؟... محمود معي؟"

مــررت بنفــس اللهفــة.. المفاجــأة والدهشــة، التعريــف المزعــوم بنفــسي:

- "تريد مقابلتي للكلام حول كافكا؟"

- "أرجو هذا.. وسعيدٌ أنك تُناديه بكافكا مثلي"

- "عرفتـه سـنين الجامعـة كلهـا حتـى الآن، لكنـي للأسـف لـن أسـتطيع مقابلتـك اليـوم.. لـديَّ عملـي مـع والـدي ولا أسـتطيع تركـه"

- "ولكن.."

- "آسف... صدِّقني هذا ليس بإرادتي"

- "علـى الأقـل هـل تُعطينـي موعـدًا.. الأمـر كلـه فـي صالـح كافـكا ليشـفى بأسـرع مـا يُمكـن"

- "إذن سأقابلك غدًا إن شاء الله... انتظر مني مكالمة"

ومـرَّ يـومٌ.. ويومـان، اتصـل الثـاني ليؤجـل الموعـد، ولم يتصـل الأول حتـى الآن! كنـتُ في الحافلـة عائـدًا للبيـت، أراقـب المناظـر عـبر النافـذة وأتفكـر، صديقـاه المقربـان

مشـغولان، الـكلُّ لديـه عملـه وحياتـه، أم أن عليهـما أن يفرغـا مـن أجلـه؟.. كـما أفرغـت أنـا نفـسي لبحثـي! نسـيتُ أننـي في زمـنٍ ينشـغل الـكل عـن الـكل، وعـبر سـماعات الحافلـة الرنانـة، تـرددت أغنيـةٌ شـعبيةٌ شـهيرةٌ وقتهـا..

ـ "مفيش صاحب بيتصاحب ... مفيش راجل بقى راجل"

***

ـ "بالحق... ما مسلسل الأنمي المفضل لديك؟!"

سـألتُ كافـكا في يومنـا الأخـير بالتربيـة العسـكرية، أجابنـي عـلى الفور

ـ "خيالي أم واقعي؟!"

ـ "وهـل هنـاك فـارقٌ بالنسـبة لـك.. ألا يبقـى العمـلُ جيـدًا فـي النهايـة؟! ألاحـظ أنـك تقـرأ فـي كل الأنـواع مـن الأسـاس"

ـ "قلتهـا بنفسـك... أنـواع، سـيظل التصنيـفُ قائمًـا.. هنـاك الخيـالُ والواقـعُ مهمـا تماهينـا معهمـا!"

ـ "فليكن !... أخبرني عن الواقعي"

ـ " romeos blue skies"

- "لا أعرفـه... يبـدو لـي روميـو هـذا يطيـر فـي سـمائه الزرقـاء بحرملـة كأي بطـل خـارق!"

- "ليـس تمامًـا!... علـى كلِّ حـال... رغـم أنـه واقعـي، فهـو خيالـي جـدًّا... خيالـي حتـى النخـاع يـا صديقـي!"

- "وبعدها معك يا هذا!... كُفَّ عن الطلاسم لو سمحت!"

- "ليست طلاسم.. شاهده وستعرف!"

- "أخبرني إذن عنه... عمَّا يحكي؟"

- "لا بـد أن تـراه بنفسـك.. علـى كل حـال هـو يحكـي عـن موضـوعٍ بسـيطٍ جـدًّا... عـن الصداقـة!"

***

وصلــتُ وجهتــي غارقًــا في ذكريــاتي الكافكاويــة، أدخــل الكافيـه الفاخـر لأجدهـا تنتظـرني ملولـةً في مكانننـا المفضـل، دعـاء.. تُومـض هنـاك بشـدةٍ بـين ظلـمات العـالم حولهـا!

- "تأخرتُ ثانية.. أعرف!"

- "أتعـرف شـيئًا آخـر... أنـت مشـغولٌ عنـي كثيـرًا هـذه الأيـام.. تنشـغلُ عـن خطيبتـك؟.. مـاذا جـرى فـي هـذه الدنيـا؟!"

لم أنشغل عنك كثيرًا يا دعاء، كما لم أنشغل عن محمود كافكا!

- "جرى كل خير.. وها هو الدليل، هدية فريدة إليكِ.. بل أربع هدايا!"

***

قابلت مهند حمدي أخيرًا، قصيرٌ مكيرٌ كما يقول المثل، معقوفُ الأنف قليلًا، ذو لحيةٍ أنيقةٍ مشذبةٍ، جلس قبالتي في المقهى الذي اخترناه لموقعه المناسب لكلينا، يعتذر لي مجددًا بحرارةٍ:

- "صدِّقني.. ليس بإرادتي"
- "لا بأس... المهم أنك ستُفيدني بشأن صديقك"
- "في الواقع.. أخشى ألا أفعل!"
- "ألا تفعل... كيف؟!.. ولِمَ؟!!"
- "لأن محمود لم يكن صديقي بالمعنى المفهوم!"
- "!!"
- "لا تستغرب... محمود لم يكن له يومًا ما ندعوه بالصديق أو الرفيق! وأنا لم أكن استثناءً يؤكد القاعدة!!"

***

-٩-

يُواصل مهند تصريحاته العجيبة عن صديقه.. أو ما ظننته صديقه:

- "كما أقول لك.. كافكا منفردٌ بنفسه منذ عرفته.. لو وُجد من يُمكننا وصفه بالذئب المتوحد.. فهو كافكا و..."

- "لحظة!... قلتَ الذئب المتوحد؟... ولماذا الذئب بالذات؟!"

- "وما المشكلة؟!... هذا محضُ تشبيه!... قرأته ذات مرة!"

أضحك بشدةٍ.. وكذا يفعل مهند، أخبرته بفكري ومقصدي.. ردَّ مُتفهمًا:

- "هكذا.. تعني رسمته السريالية؟! ليت الأمر اقتصر على هذا فقط، لم يُخبرني يومًا عن مغزى حيواناته

الأربعة، يزعم أن هذا محض تدريبٍ لمهارته في الرسم، لم أصدقه.. لكني لم أخضع لفضولي في أمرٍ كهذا... فليفعل ما يشاء، يرسم فراشاتٍ عجيبةً.. يكتبُ جملًا واقتباساتٍ مما قرأ.. يحملُ زجاجة عطر ثابتةً في جيبه دومًا.. يُحملق في المصحف كل ربع ساعة.. يرتدي خاتمًا ويرميه بنفسه.. يمشي..."

- "لحظة لحظة لحظة... مَن قال إنك لن تفيدني؟!.. ولكن لنحكِ عن كل شيء على حدةٍ من فضلك يا باشمهندس!"

وأخرجتُ مفكرتي، سأدوِّن كل ما يبدو مهمًّا، لن أبالغَ وأسجل كلمات مهند بالهاتف المخبأ في معطفي! ليس لهذه الدرجة!

***

وتركتُ الدفة لمهند.. يحكي كما يُحب، يسترجعُ الخواطر ولعل تداعي المعاني يُحدث أثره، هكذا يفعل الأطباءُ كما أحسب.. وأنا الآن طبيبٌ كما أزعم، تغيب عيناه في الماضي.. ناظرًا لأبعاد أخرى من خلالي، يحكي لي ما آمل أن يُساعدني، سألته أن يبدأ بالسنة الأولى التي تعرَّف فيها كافكا.

- "معرفتي به واحدة في كل السنين، كان وللحق نعم الزميل، المحاضرات والسكاشن وخلافه، كنا نتبادل مسؤولية التحصيل فيما بيننا، وعَلاقتنا قائمةٌ على العمل أولًا.. مع الوفاء لهذه النية، لم يتأخر عني يومًا في شرح جزئيةٍ ما، وعاملته بالمثل فيما لا يضرنا، لم نكن نذاكر معًا... بل هو الشرح السريع في الجامعة وكفى"

- "ألم تخرجا عن هذا النطاق للحديث حول شيء آخر؟ خطط المستقبل.. مشكلات كل منكما.. حب الجامعة.. ماذا عن حب الجامعة؟"

- "فعلنا بالطبع، كما يفعل الموظفون لتلطيف الجوِّ بين ساعات العمل! مشكلات البلد، السياسة وبعض الآراء فيها، صعوبة إيجاد وظيفة بعد التخرج، بالنسبة لحُبِّ الجامعة، فلا أحسب أن لكافكا واحدًا!"

- "حقًّا؟.. كلٌّ منا لديه في الأغلب"

- "لم يُحدثني عنه إن وُجد، يميل كافكا للتدين بشدةٍ، حتى إنني اندهشت لتسميته نفسه بكافكا، أليس كافكا هو اليهودي الشهير في الأدب؟ ورفضتُ بدايةً أن أناديه هكذا، لم أقتنع إلا حين ناداني باسم شخصيتي المفضلة في الفيزياء، وجدتني فخورًا

بهـذا.. رغـم أن الآخـر كان يهوديًّـا كذلـك!.. آينشـتاين! عَلاقـة محمـود الوحيـدة بفتيـات الجامعـة هـي سـخريته مـن مظهرهـن"

- "المظهر؟.. تعني الملابس والماكياج مثلًا؟"

يضحك بشدةٍ:

- "الملابس بالـذات، كانـت عيوننـا تلقـى مناظرهـن مهمـا فعلنـا، ينـدهـش محمـود كثيـرًا ويُخبرني أن والدتـه قابلته يومًـا أمـام الكليـة وعلَّقـت علـى ملابـس إحـدى الفتيـات بأنهـا ليسـت لمهندسـةٍ وإنمـا لمـن تعمـل فـي ملهـى ليلـي! كافـكا نفسـه كان يُخبرنـي أنـه تمنـى لـو دخـل قسـم الحاسـبات ليختـرع نظـارة يرتديهـا الرجـل منـا فتبـدل لعينيـه ملابـس بنـات الكليـة المعتـادة لأخـرى عفيفـةٍ! أخبرنـي كثيـرًا عـن رأيـه فـي ملابـس هـذه الأيـام، الطبيعـي المعتـاد منهـا صـار خليعًـا... فمـاذا عـن التـي تقصـدُ الخلاعـة أصـلًا؟!"

- "مشـكلةٌ ذكوريـةٌ أزليـةٌ، لكـن.. كيـف تـرى تدهـوره فـي العـام الثالـث؟ لمـاذا انفـرط عِقـد تركيـزه ليرسـبَ فـي مادتيـن كمـا حـدث؟"

- "أصدقـك القـول.. لا أدري، فجـأةً صـارت المذاكـرة تُجافيـه، هـذا مـا أثـار دهشـتي بشـدةٍ وقتهـا، سـألته

أكثر من مرةٍ عما تغيَّر، لكن الإجابة لم تكن عنده! لا تسليم للفروض... لا شراء للملازم، والأدهى نظراته الساهمة دومًا في المحاضرات، أين محمود الذي كان يحضر المحاضرة مرتين وثلاث؟ خاصة في العام الثاني حين نقص عن الامتياز درجاتٍ معدودةً، كان يستغل إعادة المحاضرة للمجموعة الأخرى ليستمعَ مراتٍ ومراتٍ، يُضحي بوقته ليفهم أكثر، أما في ذاك العام المظلم، كان يحضرُ كأنما ترك عقله في مكانٍ آخر، لا يخرجُ بكلمةٍ واحدةٍ، لا أظن أن كافكا أخبر أهله بحقيقة درجاته، لقد نجا بصعوبةٍ من إعادة السنة بكاملها، مع أنها سنة التخصص التي يُذاكر فيها الطلبة أكثر من كل السنين الأخرى".

هنا طرأ لي خاطرٌ، سألت مهند مباشرةً:

- "هل اختار كافكا تخصصه برغبته أم ضغط عليه والداه؟"

- "لا أعرفُ شيئًا بشأن الوالدين، غير أن محمود كان يرغب في (ميكانيكا باور) كما أخبرني مرةً، وجدته في النهاية اختار ميكانيكا إنتاج مثلي، سألته عن السبب فهزَّ رأسه بلا اكتراثٍ، النتيجة واحدة والوظيفة عزيزة في كل الأحوال"

- "ماذا عن العام الرابع إذن؟"

- "تغير جذري بزاوية ١٨٠ درجة، كافكا الذي لم يكن يستمع في المحاضرة... صار لا يستمع إلا إليها، روبوت إنساني كما وصفه زميلنا في قسم الميكاترونيك حيث يدرسون الروبوتات! انعزاله عن العالم زاد واستفحل، كلامه معي لم يتعد الهندسة في شيء، تعليقاته الساخرة حول الفتيات اختفت، كأنما هزَّته الهزيمة المُنكرة في العام الماضي، فقرَّر هزم نفسه بكلِّ وسيلةٍ، وقد فعل وأدهشنا جميعًا، حطَّم رقمًا قياسيًّا لم يحدث في تاريخ الهندسة!"

- "إلى أيِّ مدى بلغت غرابة أطواره في تلك الفترة؟"

- "غرابة الأطوار؟.. لقد كان الغرابة ذاتها تمشي على قدميْن، كان يبيتُ أحيانًا في الكلية مُنكبًّا فوق كتبه ومراجعه! ساهرًا في كتابة تقرير أو قراءة مرجعٍ، يسألُ الأساتذة في أعقد التفاصيل، يحومُ حول المعامل طيلة الوقت، لا يتركُ المصحفَ من يده، يقول إنه يسعى لحفظه في أقل مدةٍ، الدراسة والمصحف والصلاة... لا شيء آخر، تلهج الكلية بمظاهرات اتحاد الطلبة، وكافكا لا يُحرك ساكنًا، يموتُ صديقنا في حادثٍ مؤسفٍ، يستمعُ كافكا

للخبـر صامتًـا ويعـودُ إلـى المرجـعِ فـي يـده بـلا كلمـةٍ واحــدةٍ!"

- "تعني أنه كان في طريقه للغيبوبة؟"

- "ربمـا.. محمـود لـم يكـن علـى مـا يُـرام مـن وجهـة نظـري... بلـغ مـداه فـي الانعـزال عـن العالـم، لكـن بقيـة النـاس وحتـى والديـه عـزوا الأمـر لصدمـة الدراسـة التـي نالـت منـه"

***

هــل قلنــا كل شيء؟ لا يبــدو أن لصديــق الجامعــة مــا يُضيفــه ولكــن..

- "ولكن ماذا عن الخاتم.. قلتَ إنه رماه بنفسه؟"

- "ارتـدى خاتمًـا فضيًّـا جميـلًا فـي سـنته الأخيـرة، سـألته عنــه فــردَّ بتلقائيــة إنــه سُــنة، كمــا يزعــم بعضهــم أن الفضـة تمتـصُّ الطاقـة السـلبية مـن الإنسـان! ومحمـود أفعمتـه الطاقـة السـلبية بعـد فاجعتـه!... هـذا كلامـه علـى فكـرة وليـس كلامـي!"

- "ورغم هذا رماه بنفسه؟!"

- "أكثر من مرةٍ... يتركه على البنش في المدرج كأنه لا يهتم به ويعود ليأخذه من جديدٍ"

- "كأنه يئس من موضوع امتصاص الطاقة!"

- "ربما.. وفي مرةٍ ألقاه بعيدًا على الأرض حانقًا، فالتقطته أنا وتأملته، كانت ثمة كتابة على سطحه الداخلي.. كلمة نُقشت بخطٍّ ركيكٍ كمن يكتب اسم خطيبته، سألته عنها بلا اكتراثٍ متوقعًا إجابةً غريبةً، فقال إن هذا اسم مدينة تركية! فقد جاءه الخاتم من صديقٍ تركي عرفه من البريد الإلكتروني".

- "مدينة تركية؟!.. أي مدينة؟!"

- "لم يترك لي كافكا الوقت لأعرفها.. فقد اختطف مني الخاتم وأعاده لأصبعه ثانية!"

خاتم؟!.. ومدينة تركية؟!... يُمكنني أن أجد الخاتم عند والديه و.. باغتني مُهند بإفساد فكرتي:

- "إلى أن أضاعه كافكا بلا قصدٍ"

- "أضاعه... كيف؟"

- "كان ينزعُ الخاتم عند الوضوء، كان مُضطرًا لذلك حتى يُمرر الماء عند موضعه في الأصبع كما يفعل كل مرةٍ، لكن أحد الطلبة أوقعه دون قصدٍ بكوعه

حيث وضعه على الصنبور، سقط وقتها في البالوعة وحاول محمود الإمساك به، إلا أن الأوان قد فات".

- "هل تأثر محمود سلبًا بضياعه؟.. ما ردُّ فعله حين فقده؟"

- "لا شيء... تسمَّر قليلًا يرمقُ البالوعة، ثم عاد لوضوئه كأن شيئًا لم يكن".

لغزٌ جديدٌ تُصر على إضافته لي يا محمود... غير أن كل هذا.. يعني شيئًا ما؟ هل العمل السفلي في ذاك الخاتم إذن؟ كنت ترفضه حين تعودُ لرشدك وتقبله مُرغمًا بسيطرة السحر عليك؟!!... السِّحر التركي طبعًا، وهل السحر يقوى بوضع الفُل... الفُل؟!

- "ألم يُخبرك بشيء حول زجاجة العطر في جيبه؟"

- "لا... يُحبها كما يُحب الرسم! كان عِطرَه المفضَّل... لا يُغيره أبدًا"

- "فُل.. أليس كذلك؟!"

تنهَّد مُهند، مُتعبًا من الكلام، مُتذكرًا صديقه بحسرةٍ.. حسرةٍ ممزوجةٍ بالعجب على الصديق الراحل:

- "ليس الفل.. بل هو الياسمين"

ياسمين.. فُل، لا مشكلة.. فكلاهما واحدٌ بالتقريب.. أم..؟

***

-١٠-

حكَّ أحمد جميل شعرَه الكثيفَ، وقال:

- "محمود كافكا... كنتُ أعزَّ صديقٍ له!"

- "كنت؟!"

رددت عليه مُستنكرًا، محمود لم يمت بعد!، لِمَ يتكلم بصيغة كان وكنت؟ وما الثقة التي جعلته يقول فخورًا إنه صديق كافكا الأعز؟ قابلته بعد أسبوعين من المحاولة الأولى للقائه! وجهُه مُريحٌ نوعًا، شبيهٌ بالممثل أحمد حلمي لو دققنا النظر، عويناته رفيعة أنيقة بلا إطار، يردُّ سؤالي بأريحيةٍ:

- "أقول كان لأنه لم يعد كذلك، محمود هجرني.. بالأحرى هجر الدنيا كلها، أتكلم عن المعارف والأصحاب بالذات، لم يعد باقيًا على أحدٍ، لا تحسبني أبالغ حين قلتُ إنني كنتُ أعز أصدقائه،

هـو أخبرنـي بهـذا أكثـر مـن مـرةٍ، كان أوفـى مـن عرفـتُ فـي حياتـي، حتـى جـاء اليـوم الـذي تظاهـر فيـه أنـه لا يعرفنـي مـن الأسـاس!"

- "وكيف كان ردك حين يُخبرك أنك أعز أصحابه؟"

- "بصراحةٍ.. كنتُ أقول له... أعرفُ هذا!"

ضحكـتُ مـن صراحتـه المُفرطـة، هـو أيضًـا ضحـك حتـى دمعـت عينـاه!

- "لا تحسـبني نرجسـيًّا... لكـن هـذه حقيقـة، كافـكا كان يُحبنـي أكثـر ممـا أحبـه"

- "ولماذا تغير هكذا وهجرك كما تقول؟"

- "لأننـا انفصلنـا فـي الثانويـة العامـة، لـم تجمعنـا سـوى الـدروس الخصوصيـة بيـن الحيـن والآخـر، كنـتُ أعـرفُ أن هـذا سـيحصل"

- "كنتَ تعرف!.. ولكن لماذا؟!"

- "هـي طبيعـة الحـال.. جمعتنـا الظـروفُ ثـم فرَّقتنـا.. هكـذا الدنيـا"

أطرقـتُ لوهلـةٍ مُفكـرًا في كلماتـه، فعـلًا جمعتنـي الظروف أيضًـا بمحمـود، لكنهـا لم تُفرقنـا.. محمـود مـن افـترق عنـي.. أنـا الآخـر، أم أن..؟

- "حدِّثني عن صديقك.. قبل أن تفرقكم الظروف.. وحتى أنكرك بشدةٍ"

***

كافكا.. ذاك الطفل الغريب، أتذكره في طفولته كأنها البارحة، يُحب العزلة كثيرًا، وتُحبه العزلة بنفس القدر، لم يشاركنا في (عسكر وحرامية) أو حتى (فتَّحي يا وردة.. قفّلي يا وردة) حين كنا في روضة الأطفال، وبعدما اشتد العودُ وبلغنا الصبا، لم يُحب مركز المدافع الذي يُجيده نوعًا في كرة القدم، اغتنى عن كل هذا بألعابه ودُماه، وقصص علاء الدين وسلاحف النينجا التي تُوزع مع الكتب الخارجية، تسمَّر كثيرًا أمام سبيس توون وغيرها مما يُحرك الخيال، انتقل من (صرخة الرعب) لما وراء الطبيعة، انتهاءً بالكتب الضخمة التي لم أكن أجاريه فيها، هاري بوتر ودان براون وما شابه، فكان اسم كافكا الذي عرفناه به.

محمود كان إنسانًا خياليًّا جدًّا لو صحَّ التعبير، يبدأ من الخيال وإليه ينتهي، يُحبه وينأى عما سواه، أتعرف ماذا أظنه كان يفعل في غيبوبته؟ يحلمُ بسابق ولاحق أو رفعت إسماعيل وكل أبطاله في الخيال، ماذا تنتظرُ من شخصٍ لا يُذاكر قصص اللغة العربية والإنجليزية، لأنه

يحفظها من كثرة القراءة؟ عشق ألعاب الأتاري قبل الحاسب الآلي، أليس جهاز التحكم في يده هو واسطته لعالم الخيال هناك؟ كأنما وُلد لعالم آخر غير عالمنا، عاش محمود بيننا كأنه لم يعش، كنتُ أشاركه كثيراً في عالمه، بقدر حبي للخيال، القدر الطبيعي لدى أيِّ إنسان.

لأنني كنتُ بخلافه، أعيشُ الحياة كما ينبغي، أحترفُ الكُرة بشدةٍ، يُحبني الآخرون ويُحبون صداقتي، اهتممت بعالمي كما اهتم محمود بعالمه الافتراضي، احتلت حوائط غرفتي صور (روبرتو كارلوس) و(رود فان نيستلوري)، بينما خلت حوائط غرفته من أي شيء، فعقله مزدحمٌ بشخصياته وأبطاله.. يُحدثهم ويُحدثونه، تبادلتُ معه الروايات وشرائط الأتاري، بالعكس.. كنتُ أقرأ الروايات التي يشتريها أولًا بأول وأعيدها له! أما هو فلم يستغنِ عن امتلاك مفاتيح أبواب عالمه وليس محض استعارتها وإعادتها، متى انتبه محمود للدنيا المحيطة به، للناس والمعاملات والأمور الأخرى؟.. لا أحسبه فعل سوى في مراتٍ معدودةٍ.

أولها كانت مرحلةً محتومةً اسمها (هند)، زميلتنا في المرحلة الابتدائية، أحبها كثيراً بضفيرتها السوداء ووجهها القسيم، حب الطفولة كما تعرف، هل فعل شيئًا ما بصدد ذاك الحب؟ مثل جوابٍ غرامي ساذج الكلمات حار

العواطف بخط طفولي من قلبٍ مرفرفٍ بريء؟ لم يحدث للأسف، لم تكن لديه الشجاعة، لم تجمعه الكلماتُ بهند سوى حين تطوَّع ليشتري لزملائه في الفصل ما يُريدونه من كانتين المدرسة، فقصد هند كأول من قصد، هل عرفت هند ما يعتمل في قلبه الغضِّ؟ ربما لم يحدث لأن محمود لم يكن الوحيد الذي عشقها، إلى أن تركت المدرسة بعد إنهاء الابتدائية.

أما (سميرة) حُبه الثاني فعرفتْ بالقطع، عرفها في سنته الأخيرة من المرحلة الإعدادية فيما كانت هي في الرابعة الابتدائية! تحجَّج محمود أن الحب لا يأبه للسن أو للشكل! بيد أن الشكل ظل معه كما هو، الضفيرة الآسرة والملامح الخلابة، أحب محمود الجمال كما أحبَّ الخيال، ذكر لي آخر ما ذكر أبياتًا تُنسبُ للإمام علي كرم الله وجهه... تُلخص الكثير من نظرته للأمور، أذكرها لسهولتها ولطرافتها، فيمكن قراءتها أفقيًّا أو رأسيًّا:

أَخُونُ صَدِيقِي وَهَذَا مُحَالْ
صَدِيقِي أُحِبُّهُ، كَلَامٌ يُقَال
وَهَذَا كَلَامٌ بَلِيغُ الْجَمَالْ
مُحَالٌ يُقَالُ الْجَمَالُ خَيَالْ

***

- "لكنه خانك كما يُوحي كلامُك.. فكيف يقول أخون صديقي وهذا مُحال؟"

سألتُ أحمد مُقاطعًا، حقًّا لماذا انقطع عنه.. عن صديقه الأعزِّ؟ يُجيبني مُنزعجًا:

- "لم يحدث.. لم يخنِّي محمود، متى قلتُ هذا؟!"
- "ألم تقل إنه هجرك... وهجر كل صحبه؟!"
- "بلى ولكن.. لم تكن خيانةً! كان هُجرانًا مشروعًا.. انشغال بالدنيا وأمورها... فهمتني يا دكتور؟"
- "لم يخنك كافكا... فهمت هذا، أكملْ بعد إذنك.. ماذا تم مع سميرة ذات الضفيرة هي الأخرى؟ كيف عرفها كافكا أصلًا وهي أصغر منه هكذا؟"

***

لم يحدث الكثير، تكلم محمود مع (سميرة) مراتٍ عديدةً إذ رافقته في حافلة المدرسة، جرى الكثير من المزاح واللعب كما تسمح المواقف، (أتوبيس كومبليت) وغيرها من التسالي، يحكي لي عنها كأنها أميرته المتوَّجة.. مُتربعة على عرش قلبه، بالفعل لم يكن يذكرها في حديثه سوى بأميرتي.

لا شك أنه جعل من حبه مرتعًا خصبًا لكل الخيالات الممكنة، قصص الحب الذاتية البديعة، العفيفة بالقطع؛ فكافكا كان يُنزِّه حبه كأسمى ما يتخيل المرء، كنا وقتها في بداية البلوغ والمشاعر الحائرة المتأججةِ، وكنتُ أذكرها في سياقِ حديثي عن هذه الأمور، كأن يعلن محمود حانقًا:

- "اليوم استيقظت على حمَّام باردٍ.. تبًّا للأحلام"

- "لماذا يا شقي؟.. هل حلمت بسميرة ليلًا؟.. بوهاهاهاها"

فيزغر لي ويرمقني بأقسى علامات الاحتقار!

- "اخرس!"

ففي خياله، أنقذ أميرة عشرات المرات من ميتاتٍ محققةٍ، فدى عنها السهام في غابة شيروود، تلقى طعنة السيف من الأوركس بدلًا منها، حملها طائرًا في سماء متروبولس أو جوثام سيتي، محمود قدَّس حبه بشدةٍ، الحب الأفلاطوني إذ يلتحم مع الرجولة الغضَّة، لكن كل هذا انتهى، برحيل سميرة هي الأخرى بعد ترك المدرسة والانتقال للثانوية العامة، افترق عنها كما افترق عني، سميرة كانت تُكلم الكثير من الأولاد كذلك في سنِّها

الصغيرة.. العاشقون لجمالها مثله، ربما لم يجد محمود لنفسِه مكانًا بينهم وحسب أنها لن تختارَه.

انتقلنا للثانوية، ومحمود يكتشفُ هذه الحقيقة ببطءٍ، عليه أن يُذاكر، عليه أن يُرضي ربه كي يوفقه، لم يكن محمود من المُصلين وإن صلى فتراتٍ متقطعةً في طفولته، فصلّى في الثانوية وذاكر، وفعل ما بوسعه حتى نال ما استحقه من خير بجدارةٍ، كنتُ أظن أن مكانه الصحيح في كلية الإعلام أو الآداب لحبه للأدب والقراءة والخيال، لكنه مع المجموع الكبير الذي يريمه أي طالب، التحق بكلية الهندسة مُخيرًا أو مُجبرًا، وهناك انتهت صداقتنا تمامًا، فلا مدرسة تجمعنا ولا حتى دروس خصوصية وما من شيء آخر، كانت القطيعةُ الأخيرة خاصة بعد ذلك الموقف البسيط و...

***

- "موقف؟!.. أهناك موقفٌ مُعين أدى إلى القطيعة؟!"

- "ماذا بك ؟.. أنت تُربكني يا دكتور!"

- "آسف... أنا فقط أقتنصُ اللحظات المؤثرة في حياته، قد يقودنا هذا لشيء، بالمناسبة.. أتعرفُ شيئًا عن رسمة محمود؟!"

- "أي رسمة؟... لا أعرف شيئًا عن محمود في الجامعة"
- "سأخبرك ما فيها.. تابع الآن من فضلك... لن أقاطعك ثانيةً"

***

كان موقفًا بسيطًا جدًّا كما أحسب... هذه طبيعة الأمور، اتفقنا أن نتقابل في مكانٍ ما، وانشغلت في ذلك اليوم، لم أتصل به حتى لا أغضبه بعدم تمكني من لقائه، فاتصل هو بي فضغطتُ زر أنني مشغول، كنتُ مشغولًا بالفعل، وحين فرغتُ من انشغالي بعد يومين كلَّمته في الهاتف لكنه كان باردًا جدًّا في حديثه:

- "لا بأس يا أحمد.. حصل خير، فلنتقابل يومًا ما! "

هززتُ رأسي شاكرًا لتفهمه، بعدها حاولتُ الاتصال به، كان يُرد بكلماتٍ مقتضبةٍ سريعةٍ، يقول إنه مشغولٌ هو الآخر لهذا لا يتصل بي، ومرَّت الأيامُ وانشغل كلانا أكثر ولم نعد نلتقي أو نتحادث في الهاتف، حتى جاء اليوم الذي كلَّمته فيه فلم يعرفني! تخيَّل هذا معي.. المفترضُ أنه يعرفني من صوتي فقط... سألني مَن أنا! وحين أخبرته مُندهشًا أنني صديق عمره، فسَّر ما حدث بأنه ضغط

الكليـة الرهيـب عليـه بعـد أن انتكـس بشـدةٍ في العـام الماضي، لم أصـدِّق نفـسي وقتهـا، يـا لمـا تفعلـه بنـا الأيـام والسـنين!

حُــبُّ الجامعــة؟! لا أعــرفُ عنــه شــيئًا، لكــن يبــدو أن محمـود أقحـم نفسَـه في حـبٍّ مُسـتحيلٍ، كان هـذا في السـنة الأولى بعـد الثانويـة، كنـتُ أُصـادقُ منـذ طفولتـي العديـدَ مـن النصـارى، خاصـة في ملاعـب الكـرة في المدرسـة والمنطقـة، ولمَّـا كان محمـود يعـرفُ هـذا عنـي، اتصـل بي يومًـا- قبـل أن يُنكـر معرفتـه بي- ليسـألني آخـر مـا أتوقعـه منـه:

- "أحمـد.. هـل صليـبُ المسـيحيين علـى اليـد اليمنـى أم اليسـرى؟!!"

ذهلتُ من سؤاله، يتصل بي بعد كل تلك الشهور لهذا؟!

- "اليمنى يا حودا... لكن لماذا تسأل؟!!"

- "للأولاد والبنات يا أحمد؟!!"

- "للاثنين يا عم كافكا... إيه الحكاية يا نمس؟!"

لكــن محمــود لم يُفصـح بأكـثر مـن هـذا، لم يُخـبرني أكـثر عـن سرٍّ استفسـاره لكننـي خمَّـنـت بالطبـع، محمـود المتديـن يقـع في حـبٍّ كهـذا؟! يـا لهـذه الدنيـا! بعدهـا لم يُكلمنـي محمـود لشـهورٍ أخـرى! انشـغل كلٌّ منـا بدنيـاه مجـددًا.

تسـألني عـن حيوانـه المفضـل؟ القـط بالطبـع، محمـود يُحـب القطـط بشـدةٍ ويراهـا أجمـل مـا خلـق اللـه بعـد الأنثـى، ليتـك رأيتـه حـين مـات القـط الـذي يُطعمـه بجـوار المدرسـة، وكأنمـا فارقـه صديـقٌ عزيـزٌ، دمـوعٌ وحـزنٌ وكآبـةٌ! الغـراب؟.. لا أعـرفُ شـيئًا عنـه، مـاذا؟!... الذئـب والـدب؟! قُـل كلامًـا معقـولًا! كافـكا كان مهندسًـا وليـس دارسًـا لعلـم الحيـوان، مدينتـه المفضلـة بتركيـا؟ لم يـأتِ بسـيرة تركيـا منـذ عرفتـه ولا حتـى في لعبـة عواصـم البـلاد، خاتـم فـضي؟... لم يحـدث هـذا، لم ألمـح لمعـة الفضـة في يـده أبـدًا.

متـى رأيتـه آخـر مـرةٍ؟! بالصدفـة في الشـارع.. لمحتـه فقـط، لم أحـرج نفـسي بالسـلام عليـه ليُنكـرني مُجـددًا، كان مُتغـيرًا بكثـيرٍ عـما عرفتـه، طالـت لحيتـه وبـان عليـه التقـى والـورع، لـو كان لي أن أنصحـه وقتهـا، لأمرتـه أن يعـودَ لصوابـه، أخـشى عليـه أن يتخـذ الجلبـاب والطاقيـة في المـرة القادمـة!

***

- "بالمناسبة.. لماذا لحيتك طويلة يا دكتور؟"

لحيتـي.. طالـت قليـلًا، نسـيتُ حلاقتهـا اليـوم، لكننـي وجـدتُ نفـسي أردُّ سـؤال أحمـد جميـل هكـذا:

- "لا شيء.. أنا فقط أقلد جيفارا!"

***

-١١-

- "شـكرًا أسـتاذ أحمـد.. أظـن أننـي سـأجلسُ بالمقهـى قليـلًا.. يُمكنـك الانصـراف"

وقفتُ مُصافحًا مـن كان أعـز أصدقائـه، ذهـب وتركنـي... لحـيرتي، والأكـثر مـن الحـيرة.. الفهـم.. البحـث.. الربـط، الشـكوك تتكاثـرُ في صـدري.. تُمنينـي بالنتائج وتحجـم عنهـا في ذات اللحظـة، كافـكا... هـل بـدأ شيء مـن ضبابـك ينقشـعُ؟ لا؟.. فـما بـالُ هـذا الأمـل يتطـرق إليَّ... يتزايـدُ بـين عينـيَّ، حملقتُ في مفكـرتي... كتبـتُ الكثـيرَ مـن الفقـراتِ في الصفحة الصغـيرة، ربطـتُ بـين الكلـمات حتـى تكوَّنـت شـبكةٌ معقـدةٌ أمامـي، لكـن الشـبكة في ذهنـي كانـت أكـثر تعقيـدًا بكثـير، شربـت جرعـة الشـاي الأخـيرة وناديـت النـادل للحسـاب، دفعـت المـال ومشـيتُ مُغـادرًا المقهـى، شـاردًا... سـادرًا في أفـكاري.

هل عرفتُك بالقدر الكافي يا كافكا؟! عرفتُ عنك الكثيرَ ولكن.. حُبك، أظنه سيُقدم لي الأكثر، لكن أين حبُّك؟.. أين عساني أجده؟ وركبت الحافلة، أتفكر وأتذكر، الحافلةُ مظلمةٌ.. شبه فارغةٍ، في مقعدي فردتُ المُفكرة.. أنظرُ في الظلام، أخرجتُ هاتف كافكا.. اخترتُ أغاني قائمة المُفضلة، استمعتُ عبر سماعة الأذن مُحاولًا الانتباه مع نظري في المُفكرة، يأتي نورُ الشارع من حينٍ لآخر، يمرُّ كشُعاعِ برقٍ بطيءٍ عبر النافذة، ويُتيح لي رؤيةً مُتقطعةً بخيلةً لشبكةِ الأفكارِ هناك، تدوي كلماتُ نزار قباني في أذني بصوتِ ماجدة الرومي العذب:

- "شكرًا لطوق الياسمين.. وضحكت ساخرة له.. وظننت أنك تعرفين"

تحومُ كلماتُ المُفكرة أمام عينيَّ مع كل ومضةِ نورٍ..

ضفيرة.. صليب.. لحية.. جامعة.. جميل.. قط...

الأغنيةُ التاليةُ كانت لمحمد منير:

- "أول دخولنا الجنينة.. عيط الياسمين يا لالالي، والسيسبان اشتكى والورد قال ده مين يا لالالي"

حمدي.. ذئب.. ميكانيكا باور.... غراب.. ياسمين.. زهرة لا تذبل أبدًا

وتشدو شادية بين أفكاري

- "" والنسـمة تلعـب بينـا وتجيبنـا وتودِّينـا.. نصبـح علـى فرحـة وردة وننـام علـى نـور ياسـمينة"

هند.. فُل.. عطر..

والأغنيـة الأخـيرة كانـت لجـارة القمـر فـيروز.. هل سـتقول هــي الأخرى؟

- " ويـا دنيـا شـتي ياسـمين... عاللـي تلاقـوا مـش عارفين.. ومـن ميـن خايفين"

***

معقول ؟!

انتهـت الأغنيــةُ.. وأخرجــتُ هاتفــي فــورًا مــن جيبــي، أحــاول اختيــار الرقــم في عجلــةٍ.. مــن الأســماء.. بــل مــن السـجل.. بـل مـن الأرقـامِ الأخـيرةِ، الفكـرة.. كأنهـا سـتهربُ منــي إن لم أسرع، الرقـم أخـيرًا.. مهنـد حمـدي، يُضيء الاسـم علـى شاشـتي ريثـما يـرنُّ الجـرس، رُد يـا مهنـد.. رُد أرجـوك...

- "ألو.."

- "مهند... معك المترجم عبد الملك.. أخبرني من فضلك، محمود كان يُريد اختيار ميكانيكا باور في البداية.. أليس كذلك؟!"

- "المترجم؟!.. ألست الدكتور عبد الملك؟!!"

ويلي.. تبًّا للعجلة، هي حقًّا من الشيطان بلا شك!

- "بلى أنا هو.. رسالتي في ترجمة الحركات والإيماءات لمدلولاتٍ نفسيةٍ، لهذا يُسمون وظيفتي المترجم، والآن هلا تُجيب سؤالي؟"

- "فعلًا كان يبغي هذا القسم قبل أن يُغير رأيه"

- "إذن.. هل أجدُ عندك رقم زميل لكم في ذلك القسم؟ أريد سؤاله عن شيء ما"

يُفكر مهند قليلًا، أنتظره على جمرٍ بينما تتردد ضوضاء الشارع من حولي:

- "حمزاوي.. محمد حمزاوي، أظنني املك رقم هاتفه.. لحظةً واحدةً.. ها هو.. اكتب معي!"

وأملاني الرقم، شكرته وطلبت الرقم الآخر بلا انتظارٍ، جاءني الصوتُ السحري عبر الخط:

- "ألو.."

- "باشمهندس محمد حمزاوي؟"

- "نعم تفضَّل"

- "معك الدكتور عبد الملك شريف... أنا أُشرف على حالة زميلك محمود كافكا.. أعني محمود مصطفى"

- "كافكا.. أتذكره بالطبع، ولكن ماذا أصابه بالضبط؟... سمعنا الكثير من الإشاعات عنه"

أشرح في صبرٍ نافدٍ، أختلقُ قصةً جديدةً مقنعةً باقتضابٍ، مقنعةً بالقدر الذي يُمهد لسؤالي القادم و... أخيرًا:

- "سأسألك سؤالًا واحدًا يا باشمهندس، استشففته من جلسات علاج كافكا، تجبيني فقط بنعم أو بلا وبعدها نتكلم في الخطوة التالية"

- "تفضل!"

سحبتُ نفَسًا وأخرجته بسرعةٍ، استعددتُ للسؤال الذي سيعني أنني قد وصلت لشيء ما أم أنني أحمق بالكلية:

- "هل لديك في الدفعة زميلة فاتنة ذات ضفيرةٍ تُدعى ياسمين؟"

يصمــتُ حمــزاوي قليــلًا، أكاد أســمعُ دقــات قلبــي.. محطتــي فاتــت.. لا يهــم:

- "كافكا أخبرك بهذا؟!"

- "أخبرني أنت فقط... هل هذا صحيح؟"

- "بالفعل.. ياسمين عماد.. أجمل فتيات الدفعة!!!"

***

-١٢-

فتاتـك يـا كافـكا.. وجدتهـا! وردتـك التـي لا تذبـل إذ حملـت اسـم أجمـل الـورود بالفعـل! فاتنتـك النابهـة التـي عشـقتها وعشـقت كل مـا يمـت لاسـمها حتـى الأغـاني والعطـور! هـي الآن تتـدربُ كمعيـدةٍ في جامعـةٍ خاصـةٍ ضمـن نشـاطٍ طـلابي، ربمـا تحولـتَ لآلـة مذاكـرة في عامـك الأخـير مـن أجلهـا يـا بطـل، كي تصـيرَ مُعيـدًا أنـت الآخـر، هـل هـي عقـدة أن تكـون أقـل منهـا درجـات هـي مـا دفعتـك لـكل هـذا؟ كيـف أكـون أقـل في المسـتوى العلمـي مـن حبيبتـي؟.. لكنهـا حبيبتـك فـما المشـكلة؟ أم أنهـا حبيبتـك بـلا كلـماتٍ معهـا كهنـد؟

سـنعرفُ كل شيء؛ فأنـا لم أضيـع وقتًـا يـا صديقـي، هـا أنـذا في الجامعـة الخاصـة أسـأل في النشـاط الطـلابي عـن المحـاضِرة ياسـمين عـماد، أجدهـا في السكشـن الـذي شـارف

على الانتهاء، أنتظرُ خارجًا ريثما ينتهي، وأقضي الوقت في تتبع ألغازك يا كافكا! كيف؟!.. بتصفح بريدي الإلكتروني على الهاتف، رائع!.. جاءني الرد على الرسالة! أي رسالة؟! الرسالة التي تحوي سؤالًا مهمًّا عن العلاقة بين (إبيقوريا) و(مزدكيا) و(فرويديا) و(بومبي)، أرسلت السؤال لأستاذ تاريخ بكلية الآداب، شرحت له فيها الموقف على أساس أن الكلمات وردت في مقالٍ قديمٍ لكاتبٍ ياباني وأحب أن أفهم مغزاها، لنرى ما يقوله أستاذ التاريخ:

- "يبدو أن الكاتب في مقولته هذه ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه، فالرابط بين الكلمات الأربعة من حيث الأصل هو الإباحية الجنسية الصريحة في كل كلمةٍ، فديانة مزدك وفلسفة إبيقور ونظريات فرويد، كلها تشتركُ بشكلٍ ما في الإباحية والدعوة لها، تمامًا كما حدث في مدينة بومبي الرومانية إبان القرن الثامن عشر".

***

هكذا إذن؟!!.. هذا يتفقُ مع سخريته من ملابس فتيات كليته! هكذا عرفنا عَلاقة وحللنا لغزًا، فماذا عن

العَلاقــة واللغــز الآخــر؟! الروايــاتُ الخمــس التــي لم يقــرأ بعدهــا شــيئًا، فلأطلــب رقــمَ خطيبتــي دعــاء عــلى الفــور:

- "المحقـق كونـان يتصـل بـي؟!.. هـل انتهـت القضيـة أم ليـس بعـد؟"

- "ظهـرت أدلـةٌ جديـدةٌ أيهـا المفتـش دعـاء، هـل انتهيـتِ مـن قـراءة هدايـاك الأربـع؟"

- "انتهيت يا أستاذ، أي هدايا هذه؟"

- "مـاذا بهـا يـا حبـي؟ هـل وجـدتِ شـيئًا يربـطُ بيـن الروايـات كلهـا؟"

- "وليتنـي مـا وجدتـه، أتـدري مـا الرابـط؟.. إنـه فـألٌ سيئ منـك يـا عبـده"

- "أخبريني بالله عليك"

- "المـوت!... الروايـات الأربـع تفـوحُ برائحـة المـوت! السـقا مـات وجلجاميـش تقصـدان المـوت مباشـرةً، ومنافـي الـرب تحكـي عـن كواليـس المـوت خاصـة الدفـن والقبـر، حتـى مجلـد تولسـتوي يحتـوي قصـةً عـن المـوت اسـمها مـوت إيفـان إيليتـش".

- "انتظري... حديث الصباح والمساء هي الأخرى تحكي عن الحياة والموت.. خاصة الموت كما جاء في المسلسل، رائع يا دعاء راااائع!"

- "ما الروعة في الموضوع؟ هل تكتبُ ورقةً بحثيةً عن الموت في الأدب أم تنوي إصابتي بالفالج يا..."

- "دعاء.. معذرةً يا حبيبتي، وداعًا الآن فمديري في العمل قادمٌ! سلام سلام!"

- "المدير أهم مني؟!.. أنا أيضًا لديَّ مديري على فكرة!"

***

إذن.. فقد قرأ خمس روايات عن الموتِ في خمسة أيام، كان مشغولًا بالتفكير بالموت لهذا الحد؟ هذا يُذكرني بشيء ما، أتصل برقم أم محمود فورًا، بعد التحية أسألها مباشرة:

- "أمي.. هل مات لمحمود صديق أو قريب منذ حوالي سنة؟"

أي منـذ قاطـع الأدب، أي منـذ قـرأ روايـات المـوت الخمـس، منـذ بـدأ برسـم الفراشـة كاملـة بقـط وغـراب، تصمـتُ الأم لوهلـةٍ:

- "بالفعـل يـا بنـي.. (مهـا) رحمهـا اللـه ابنـة عمته الشـابة، رحلـت بسـبب المـرض الخبيث"

- "هل حزن عليها بشدة؟"

- "بالطبـع.. كلنـا فعلنـا هـذا، محمـود مكـث فـي المسـجد يومـه بالكامـل حيـن عـرف الخبـر"

- "وما رد فعله حين تذكُرونها؟"

- "لا أفهم قصدك.. بالطبع نترحَّم عليها"

- "أعني هل يصمتُ أم يبكي مثلًا؟"

- "فـي الواقـع يصمـتُ.. محمـود لا يبكـي كثيـرًا مؤخـرًا، لكـن.. كيـف عرفـت هـذه الحكايـة يـا عبـده؟"

***

-١٣-

حللنا لغزين.. والآن إلى اللغز الأكبر، انتهى السكشن.. وتوافد الطلبة الخارجون، صاخبين مُتمهلين في الممرِّ الذي ازدحمَ بالفصولِ المماثلةِ، ظلت معيدةُ المستقبل المنشودة بالداخل قليلًا حتى استبطأتها، وحين ذهبتُ لألقي نظرةً، وجدتُها تُواجهني إذ اقتربت خارجة في نفس اللحظة.

لله درُّك يا كافكا!... لله درُّك يا أبا ياسمين حين سميتها هكذا! ما كذبتَ وما بالغتَ! خدعونا فقالوا إن بنات هندسة (غفر)! هُن لسن غفرًا أو جميلاتٍ حتى، هن ملكات جمال بلا شك! لكن ما هذه الملابس؟! خفيفةٌ شفيفةٌ، تُغطي مساحةً قليلةً من الذراعيْن! فهمت!.. لهذا أحبها بالشتاء وكرهها بالصيف! غير أن الجينز لم يكن ضيقًا كالعادة، بل واسعًا فضفاضًا، كأنها لم تقصد

الإغـراء الكامـل، كأنهـا طبيعتهـا المتحـررة وحسـب، كانـت فتاتـه واحـدةً ممـن يسـخر منهـن؟!

غديرتهـا ذيـلُ الحصـان تتأرجـحُ خلـف ظهرهـا.. لهـذا كان يظنهـا مسـيحيةً! بشرتُهـا البيضـاءُ وأنفُهـا الدقيـقُ، جمالهـا يميـلُ للغـرب كأمـيرات ديـزني! لم آتِ هنـا للتغـزل في حبيبتـك يـا محمـود، أنـت معـذورٌ حتـمًا.. مثـلي، هـذا الوجـهُ خُلـق ليُحبـه مـن يـراه، تمالكـت نفـسي بسرعـةٍ، كأننـي أفقـتُ أخـيرًا مـن صدمـة الجـمال المبالـغ فيـه الـذي باغتنـي، خرجـتْ متجاهلـةً نظـراتي المبهوتـة كأنهـا اعتـادت مثلهـا، لحقـت بهـا:

- "باشمهندسة ياسمين.. لحظة من فضلك!"

التفتـتْ موجهـةً نظراتِهـا المتسـائلةَ- المتعضـة نوعًـا!- قبـل كلماتهـا:

- "نعم؟"

- "أنـا الدكتـور عبـد الملـك شـريف... أُشـرف علـى حالـة زميـلٍ قديـمٍ لـك... أظـن أنـك تعرفينـه"

تغيرت ملامحُها بسرعةٍ إلى الدهشة البحتة:

- "زميلي؟!.. أي زميل؟"

- "زميلـك المدعـو محمـود مصطفـى.. المعـروف بمحمـود كا فكا "

بان الشكُّ والضيقُ في وجهها، قالت في برودٍ:

- "هل هذه مزحةٌ؟! ما دخلي أنا بالأمر؟"

- "إذن فأنـت تتذكرينـه، أنـا طبيـبُ الامتيـاز مسـاعد الاستشـاري النفسـي الـذي يُعالجـه، محمـود فـي حالـةٍ نفسـيةٍ بالغـة السـوء، هـو لدينـا الآن فـي المصحـة، لا لـم يُصبـح مجنونًـا، أنـتِ تعرفيـن تعـب الأعصـاب، فقـط كنـتُ أودُّ الحديـثَ معـك قليـلًا عـن عَلاقتـك بـه، قـد يفيدنـا هـذا فـي علاجـه"

تُحدِّق بي بلا تعبيرٍ، تقولُ بنفس البرود:

- "هو من أخبرك باسمي إذن؟"

- "لا.. أعنـي نعـم، عرفـتُ هـذا مـن مذكراتـه.. نعـم مذكراتـه!"

نظرتْ في الأرض لوهلةٍ، ثم:

- "دكتـور... هـل لـي أن أطَّلـع علـى كارنيـه الكليـة الخاص بك؟"

***

لم أتوقـع هـذا.. وبُهِـت الـذي كـذب، لاحظـتْ هـي ذلـك.. رمقتنـي بـازدراءٍ ثـم تركتنـي دون كلمـةٍ واحـدةٍ، لكـن.. لكـن

لحظـة.. لم أنتـه بعـد، لا بـد أن أعـرف مـا حـلَّ بكافـكا مـع حبـه، أكانـت هـي السـبب في صدمتـه؟ هـل فشـل في هـذه التجربـة فانتهـى بـه المطـافُ لهـذه الحـال؟! لـن يتوقـفَ بحثـي هنـا.. لـن يتوقـفَ، أخرجـتُ كارنيـه الكليـة وكارنيـه العمـل ولحقـت بهـا مجـددًا:

- "باشمهندسة.. أرجوك، استمعي لي فقط"

تستديرُ بسرعةٍ في اتجاهي، تهتفُ في انفعالٍ:

- "هل أنادي لك الأمن؟ فلتتركني لحالي وإلا..."

أبرزُ لها الكارنيهين وأقول مسرعًا:

- "أنـا لسـتُ لصًّـا أو قاتـلًا... ولا أتسـلى بـك حتـى، أنـا تخرجـتُ للتـو مـن كليـة الألسـن... محمـود هـو صديقي، صدِّقينـي هـو الآن فـي أسـوأ حـالٍ و.."

- "أعرفُ ما حصل له"

- "حقًّا تعرفين؟!"

- "أعـرف.. أخبـار نبوغـه بلغـت كل مـكانٍ فـي الكليـة، ثـم أخبـار سـقوطه فـي أزمـةٍ عصبيـةٍ أو مـا شـابه، أعـرفُ كل هـذا.. لكـن مـا عَلاقتـي أنـا بـه أصلًا؟!"

ـ "أنـا الـذي بحثـتُ عنـكِ لأسـألك هـذا السـؤال، عشـر دقائـق فقـط مـن وقتـك، تُسـاعديني بهـا، أنـا صديقـه فعـلًا.. هاتفـه معـي ويُمكنـك التأكـد مـن والدتـه و.."

تضحكُ لكلماتِي:

ـ "أعلمُ أنك صديقه! ليست المشكلةُ هنا"

ـ "مـا مـن مشـاكل صدِّقينـي.. لنبقـى هنـا ريثمـا تحكـي لـي فقـط عـن تجربتـك معـه وأذهـب لحالـي"

تصمـتُ للحظـةٍ، تسـتندُ إلى درابزيـن السـلم، تزفـرُ في تسـليمٍ:

ـ "بـل نجلسُ فـي كافيتريـا الكليـة، لننتهـي سـريعًا مـن هـذا العبـث، لـن أخسـرَ شـيئًا، ولعلـك صـادقٌ فـي النهايـة"

***

راحتْ ياسمين تحكي قائلةً:

"عرفـتُ صديقـك في العـام الأول، إعـدادي هندسـة كـما نُسـميه، تلاقينـا في معامـل الكيميـاء في الأيـام الأخـيرة مـن العـام، حـين يُراجـع الطلبـة التجـارب قبـل امتحـان العمـلي، لم يُخـفِ محمـود نظراتـه نحـوي مـن حـينٍ لآخر، كنـتُ دائمًـا

بعيدةً عنه مع زميلاتي في نهاية المعمل، ذات مرةٍ أسقط ما في الأنبوبة وأحرق معطفه الأبيض، بالغ في سرحانه بينما يُحدق بي!"

"على كلِّ حالٍ ليس هذا بجديدٍ، مَن هي مثلي أَلِفَتْ هذه النظرات واعتادت المُريدين، لا أشكر في نفسي أو أتفاخر بما لديَّ، أنا أقرر الحقائق فقط، منذ نعومةِ أظفاري كان هذا نمط التعامل الوحيد معي، خاصة من الرجال بكل أعمارهم، لم يكن محمود أول المتوددين أو آخرهم!"

"ربما لهذا ذاكرتُ وكافحتُ بشدةٍ لأثبتَ للعالم كله، أنني لستُ وجهًا مليحًا فقط، أنا عقلٌ راجحٌ ليس بالسهل، لن أكونَ سوى مهندسةٍ تقتحمُ أصعب المعادلات والنظريات والمناهج المُعقدة، وقد حدث وأثبتُّ نفسي طوال عمري حتى الآن، ما الذي تطرَّق بي أصلًا لهذه النقطة؟! لنعد لصديقك الذي بحاجةٍ للمساعدة"

"في العام التالي كنا في قسم الميكانيكا العام معًا، لكننا افترقنا في المجموعة، هذا لم يوقف صديقك عن تعقُّبي، ألفيته في كل محاضرةٍ يُمكنه أن يتواجدَ فيها عندنا، كل محاضرةٍ وكل سيكشن، حتى في الامتحانات وجدته قريبًا مني في المدرج! نظراته لم تعد محدودةً قليلةً، بل كانت

سهامًا يُوجهها نحوي في كلِّ مكانٍ وزمانٍ، حقًّا سئِمتُ هذا الحصار، لكنه أعلنها لي صراحةً، أنا تحفةٌ فنيةٌ أو كائنٌ فضائي جميلٌ يستأهل النظر والتأمل!"

"شيء آخر، كنتُ لا أكلم الأولاد أبدًا وقتها، حتى في المدرج، كنتُ أجلسُ في مكانٍ ثابتٍ عند حرفِ البنش كيلا يجلس أي طالبٍ بجواري، لا وقت للصداقاتِ البلهاء، خاصة أنني أعرفُ نفسي، الكل يمنِّي نفسَه بنظرةٍ مني، فما بالك بصداقتي؟ لكني لن أضيع وقتي الثمين لجلساتٍ في حديقة الكلية للعب spin bottle أو الصراحة وكل هذه التفاهات، أنا أرجح بكثيرٍ من هذا"

"صديقك لم يُراعِ هذا وظل على حاله، بل اختار مكانًا ثابتًا هو الآخر لا يُغيره في المدرج ليراني بأفضل صورةٍ ممكنةٍ! حتى أبديت مللي وسأمي جرَّاء كل نظرةٍ منه، ما باله... ألا يُريحيني منه؟ لِمَ لا يأتي ويُعلن لي نيته في الصداقة الحمقاء لأحسمَ له هذا الأمرَ وننتهي ؟ وكأنما سمع خواطري، فبعد أيامٍ قلائل.. ألفيته أمامي بمعطفهِ الأنيقِ مبتسمًا في حرجٍ، يطلبُ مني بضع دقائق ليقولَ شيئًا ما"

"لكني وجدتُ نفسي أنكر معرفتي التامة به وكأنني لم ألقه يومًا! أنت مين أصلًا؟!!... تخيَّل رد فعله وقتها!

عرَّفنـي بنفسـهِ سريعًـا.. بعدهـا ألقـى قنبلتـه فـورًا، لا لم يقـل إنـه يُحبنـي ولكـن...."

- "أردتُ إخبارك فقط أنني..."

- "هه... ماذا؟"

- "مُعجب بك جدًّا!"

ضحكـتُ وقتهـا كثـيرًا، أي صراحـةٍ هـذه وأي دخلـة؟ لكـن لم يكـن لـديَّ مـا أقولـه، مُعجـب بي؟.. طيـب! فلتعلـم أني لا أصـادق أحـدًا!

- "لكني لا أريدُ الصداقةَ أبدًا"

أقطِّبُ في وجههِ بطريقتي الباردةِ كالثلج:

- "إذن ماذا تُريد؟"

لم يقـل شـيئًا، ظـل يتجنـبُ النظـرَ إليَّ وقتهـا كأنـه يُحـدق في الشـمس! أحـين تـأتي أمامـي مبـاشرةً تخجـلُ مـن النظـر؟! ألا تُريـدُ الـكلام أيضًـا؟

- "بعد إذنك!"

وتركتُه وذهبتُ.

- "باشمهندسة!"

جززتُ بغيظٍ على أسناني، والتفتُّ له:

ـ "هل تذكرتَ ما تُريد قوله؟"

ـ "بشأن.. بشأن شَعرك!"

ـ "!!!"

ـ "..."

ـ "شَعري... ما به شَعري؟ هل أنت مُعجبٌ به كثيرًا هو الآخر؟!!"

ـ "لا شيء.. لا شيء ألبتة... آسف لإزعاجك، تفضلي!"

***

"وذاك هو التعاملُ المباشرُ الوحيدُ بيني وبينه، لم نتحدث بعدها لمرةٍ واحدةٍ، ظل يحضرُ في مجموعتي ليستزيدَ من الشرح فقط، فقد كفَّ عينيْه عني قليلًا، ولا أُخفي عنك أنني بدأتُ أهتم بالنظرِ له في تلك الأيام! خاصةً حين تخلَّى عن مقعدِه لي ذات مرةٍ، مَن هذا الشخصُ الغريبُ الذي يُكلم فتاةً بشأن إعجابه ثم بشأنِ شَعرها؟! لم أفهمه حتى يومنا هذا!"

"وفي العام التالي استمرَّ في زيارة محاضراتي بين الحين والآخر، بلا نظرةٍ واحدةٍ لي، بل كان يشيح عني ما وسعه

ذلك! ربما لتدينه في تلك الفترة كما أظهرتْ لحيتُه النابتةُ، بعدها بعامٍ عرفتُ خبر تفوقه بجدارةٍ وتحطيم أساطير قسم ميكانيكا إنتاج، ثم الخبر الآخر بأزمتهِ النفسيةِ الحادة جرَّاء الإفراط في المذاكرةِ، استغل الطلبة هذا الخبرَ الأخيرَ بالذات في توجيه اللوم الصامت للأساتذةِ كي يخفُّوا الضغط عنهم قليلًا، فها هي ذي نتيجة أسلوبهم في التدريس أن فقد زميلُهم عقله!"

"يبدو أن هذا حدث فعلًا في سنة التخصص، فقد قابلته ذات مرةٍ في الحافلةِ ولم يُحرك عينيْه للحظةٍ في اتجاهي، إنسان آلي فعلًا كما وصفوه، وحين رآني لم يتأثر للحظةٍ وكأنني محضُ هواء أمام ناظريْه! أنا التي بقيت مُحدِّقةً فيه وقتها أتصعَّب وأُحوقل! هذا الفتى ضحية الأساتذة الحمقى!"

"هذا كل ما لديَّ عمَّن تسمونه كافكا! والآن بعد إذنك بلا كلمةٍ أخرى".

***

-١٤-

عُدتُ من لقائي مع ياسمين عماد، مُثخَنًا بالأسئلةِ، أسيرُ نحو باب الكلية سيرًا جنائزيًّا لم أقصده، لم يفدني كلامُها كثيرًا، وإن عرفت منه جانبًا مؤكدًا في كافكا، خجله الشديد الذي انقلب لصراحةٍ عارمةٍ، صراحة لم تكتمل للحدِّ الذي يُخبر فيه حبيبته أن تتحجب! فلم تفهم المُعيدة ذات العقل الراجح أنه قصد شعرَها وسُفورها، محمود المتدين تمنى لو تُغطي حبيبته التي عشق النظرَ إليها شعرَها، لم يستطعْ إلا محض تلميحٍ بخيلٍ، ولعل هذا كان الأصوب.. أم ربما لا؟

كافكا كان يحضرُ المحاضراتِ مرتين وثلاثًا من أجل نظرةٍ لوجهِ حبيبته، جلس في مكانٍ معينٍ لا يتغيرُ، ليس لرؤيةٍ أوضح لكلمات المحاضرة المكتوبة، وإنما لملامح حبيبته المرسومة بيد خلَّاقٍ بديعٍ قديرٍ! محمود.. هل انتهى بحثي هنا، لم أصل لشيء، لم أعرف مَن حبيبتك

سبب كبوتك، أين مذكراتك حقًّا التي ادعيتُ لياسمين أنني عرفتُها منها؟ لماذا تضنُّ عليَّ هكذا بأسرارك؟! لِمَ لمْ تُخبرني في أحلامك العشرين بأكثر من ذئبٍ ودُبٍّ؟، أفصحْ قليلًا عن رموزِك التي تتركها في كلِّ مكانٍ تزوره و... و.. رموز؟!... مكان تزوره؟!.. رسومات وكلمات؟!.. معاني خبيئة؟!... هناك أملٌ إذن!

هل فكَّرتم فيما أفكرُ؟!!

***

باشمهندسة ياسمين، لا بد أن ألحق بك، ها أنا ذا أعودُ أدراجي إليك، الأمل ضعيفٌ.. الخيطُ واهنٌ متآكلٌ، لكن لا بد من المحاولة، كافكا... أرجوكَ يا صديقي، أفصحْ هذه المرة.. واستخدم القلمَ الجافَّ في رسمِك وكتابتِك! ورأيتُ المهندسةَ الفاتنة هناك، تستعدُّ لركوبِ سيارتها الفارهة، وصلتُ إليها ألهثُ، حمدًا لله أنني لحقتُ بك، ترمقني عبر نظارةٍ سوداء بالغةِ الأناقة من نافذة السيارة:

- "هل جئتَ تطلبُ إليَّ أنْ أقابل صديقك وأعيده لرشده؟! ربما تطلبُ مني أن أعانقه كذلك! عندها صدِّقني لن أترددَ في دهسِك بسيارتي!"

أضحكُ في عصبيةٍ، وتضحكُ هي بفعلِ ضحكي لكنها تُومئ بجديةٍ:

- "ليس الأمرُ كذلك صدِّقيني، فقط أردتُ أن أعرفَ شيئًا، سؤالٌ واحدٌ أنتِ فقط القادرة على إجابته"

- "معامل مرونة الحديد تقصد؟!... هذه أمورٌ هندسيةٌ لا تعنيك!"

- "لا ليس هذا.. فقط أريدكِ أن تصفِي لي المكانَ الذي كان كافكا يجلسُ فيه حين يحضر ليراكِ، صفِي لي المكانَ بالتفصيلِ والمدرجِ و.. وكل شيء آخر لأصلَ إليه!"

تصمتُ.. ينعقدُ حاجباها قليلًا فوق النظارة، تمطُّ شفتها السفلى في تسليم، تخرُجُ قلمًا ونوتة من حقيبة يدِها:

- "لا أفهم شيئًا، لكن لو سألتني عن مقعده المفضل في كل سنين الجامعة لطعنتك بهذا القلم، لحظةً حتى أرسمَ (كروكي) للمكان، شغل هندسة ودماغ كما تعرف"

خطَّت رسمًا سريعًا وناولتني الورقةَ بعدما نزعتها من النوتة، وابتسمتْ باقتضابٍ لكلماتي الممتنة، ثم خرجتْ

بسـيارتِها حامـدةً ربَّهـا أنني سأنقشـعُ عنهـا، أمـا أنـا فقـد استقللت سـيارة أجـرة لأول مـرةٍ منـذ سـنتين! أحـب المشي عـادةً وإلا فالحافلـةُ أفضـل، لكـن هـذا فقـط لألحـقَ بكليتـك يـا محمـود، وصلـتُ بعـد دهـرٍ، ذهبـتُ نحـو المُـدرج المُحـدد، مـدرج ٢٠٢ج و... مغلـق! السـاعة تعـدَّت الثانيـة ولا محـاضرات أخـرى اليـوم.

العامـلُ.. أيـن العامـلُ؟ هـا هـو ذا... أرجـوك.. آلتـي الحاسـبة.. لا بـل ورق المراجعـة.. بـل البطاقـة الشـخصية، هـا هـي ذي حـلاوة عـودة الأشـياء الضائعـة لي، أرجـوك افتـحْ هـذا البـاب! ويفتـح البـابَ أخـيرًا.. ويُـضيء لي الأنـوار، انظـر في الكـروكي بينـما أذرع المـكان نحـو ضالتـي، البنـش الثالـث عـلى اليمـين.. عنـد حـرف البنـش مـن جهـة اليسـار و.. هـا هـي ذي فعـلًا!... حمـدًا للـه، هـا هـي ذي الآثـار الكافكاويـة ذاتهـا عـلى البنـش بقلـمٍ أزرق لم ينمحـي إثـر السـنين.

ليـس هنـاك فراشـاتٌ أو حيوانـاتٌ، لم تتعقّـد الأمـورُ وقتها لهـذا الحـدِّ، لكـنَّ هنـاك وردةً كبـيرةً لم ألقهـا مـن قبـل، هنـاك منحنيـاتٌ كثـيرةٌ تُشـبه القلـوبَ مرسـومةً في شـبكةٍ رياضيـةٍ بيانيـةٍ! هنـاك دوالُّ رياضيـةٌ تُمثـل أشـكالًا عجيبـةً، هنـاك.. هنـاك.. لا شيء آخـر، كافـكا.. لا تفعـل بي هـذا، عرفـتُ أنـك لـن تـتركَ هـذا الموضـع فارغًـا بالـذات، لا تُرجعنـي لمنـزلي دون

فائـدةٍ، مـا الجديـدُ هنـا.. القلـوب.. الـدوالُّ العجيبـة.. الـوردة و... الـوردة.. لحظـةً واحـدةً!

في قلـبِ الـوردة، كلمتـان اثنتـان بخـطٍّ صغـيرٍ مُزخـرفٍ ومُشَـكَّلٍ، واحـدة فـوق الأخـرى، العليـا أقـل في الحـروف تتحدُّ مـع السـفلى في اتسـاقٍ بديـعٍ، كلمتـان عجيبتـان.. لم أجـد لهـما معنًـى في البدايـة، قرأتهـما مـرارًا وتكـرارًا حتـى غامـت الرؤيـةُ أمامـي، كلمتـان فقـط... لم يحسـما شـيئًا، وأضافـا لغـزًا آخـر.. بـل ألغـازًا كافكاويـة أخـرى.. كلمتـان فقـط.

"بِنْتُ النَّبِي"

هكذا فقط يا كافكا؟!.. بنت النبي؟!

***

"بنت النبي"

كنـتُ في غرفتـي مُفكـرًا، كعـادتي هـذه الأيـام، شـاردًا عـلى الـدوام، تُناديـني أمـي لأجـل العشـاء فـأردُّ أني قـادمٌ ولا أُحـرِّك سـاكنًا، لأنني أغـرقُ في عـالم كافـكا، كافـكا المـصري وليـس التشـيكي، مـاذا بعـد يـا صديقـي، ولمـاذا "بنـت النبـي" بالـذات التـي كتبتهـا بينـما تتأمـلُ محبوبتـك عـن قـربٍ؟ مـاذا عنيـتُ هـذه المـرة؟ أي نبـي؟ ولمـاذا تراهـا ابنتـه؟! أهـو محمـد عليـه

الصلاة والسلام؟ فأين ياسمين من بناته؟! وهل إحداهن اسمها قريبٌ حتى من ياسمين؟! هل هناك أصلًا من الأنبياء من سمَّى ابنته بياسمين؟!! أنا سمعتُ قصص الأنبياء ولا أذكر أي شيء كهذا، هل أحضر العهد القديم وأقرأ سير الأنبياء من أجل لمحة عن الياسمين، أهيَ تسلية شخصٍ مثقف مثلك وحسب؟! ترسم وردةً وتكتب فيها فخورًا.. بنت النبي!

أظنني انتهيتُ هنا يا صديقي، أحتاجُ لدان براون أو يوسف زيدان كي أحل هذه المعضلة ولعل هذا لا يحدث بوجودهما أيضًا! أهو الـ game over لكلّ هذا يا كافكا؟! لن أكلم أمك أبدًا، بل سأدعُ هاتفك أمام باب الشقة، أطرقُ الباب وأهربُ كالأطفال، مع رسالة اعتذارٍ بخطٍّ خجولٍ خزيان، معذرةً يا أمي.. لم أنجح في فكِّ العَمل، أظنه مكتوبًا على جلد قرموط، وكما تعرفين.. من الصعب أن نجدَ القرموط لنطعمه لكافكا حتى يفيق! وهل يجب أن نطعمه القرموط؟! لا أعرفُ.. أقسم أنني لا أعرفُ.

تُنادي أمي مجددًا بصوتٍ أعلى:

- "قاااااادم...حالًا يا أماه"

هكذا، انتهى الأمرُ هنا.. كما يبدو.

***

أُلقي بالمفكرةِ على المكتب بضيقٍ، كانت صفقةً خاسرةً منذ البداية، مع من كانت الصفقة أصلًا؟!... مع لا شيء! مع الوهمِ ولذا هي خاسرةٌ، ذهبت للردهة حيث تركت لي أمي عشائي أمام التلفاز، وقد رفعتْ صوته- التلفاز- لتسمعَ مسلسلها المفضل أثناء العمل في المطبخ:

- "لا تُغير المسلسل يا عبده!"

- "حاضر يا أماه"

في الواقع، كنتُ أحب المسلسل أنا الآخر وأتابعه حين تُتاح لي الفرصة، رغم كل الشبهات الموجهة نحوه، أعشقُ فيه القصة والدراما الإيمانية البديعة، أتجنب النظرَ فقط لممثلي الأنبياء كيلا يحتفظ عقلي بوجوههم عند ذكر أي نبي، رفعتُ الصوتَ أكثر.. وبدأت بالأكل:

- "يوزرسيف... اخترت لك زوجةً مناسبةً"

يوسف الصديق، يا لها من قصة... أحسن القَصص حقًّا و.. مضغتُ الطعام ببطءٍ، أتابعُ الأحداث بذهنٍ مكدودٍ:

- "إسينات فتاة جميلة.. تُناسبك حتمًا يا يوزرسيف"

شردت ناظرًا للشاشة، سرحتُ في محمود ثانيةً، هناك يرقدُ بلا أملٍ في العودة، ترى هل تابعتُ هذا المسلسل

من قبل يا كافكا حين كنتَ.. (حيًّا)؟! هل عرفتَ إسينات زوجة النبي يوسف و.. وبنته؟!!!

***

بنت النبي يوسف! النبي يوسف.. تزوَّج؟!.. وأنجبَ؟ وهببتُ واقفًا في لحظةٍ، جريتُ لأمي في المطبخ، فهي شاهدت المسلسل من قبل:

- "أمي.. هل تزوَّج النبي يوسف وأنجب؟"

استغربتْ أمي سؤالي المفاجئ ولهفتي:

- "نعم.. تزوَّج وأنجب!"

- "هل أنجب بنتًا؟"

- "بل ولدًا وبنتًا!"

- "ما اسم البنت؟!"

- "اسمٌ غريبٌ لا أذكره.. لماذا تسأل؟"

- "لا شيء.. أردت استباق الأحداث"

غسلتُ يدي بسرعةٍ، ذهبتُ نحو هاتفي الخلوي، كتبتُ ثلاث كلماتٍ فقط في شريط البحث على الإنترنت، ثلاث كلمات محددات قد تفتح مجالًا جديدًا للبحث في

قضيتك يا كافكا، ربما.. ربما يكون هذا هو الحل.. ربما يكونُ هو النبي المقصود؟ بعد اليأس الذي انتابني.. دعْني أجرب، و.. كتبتُ الكلمات:

ـ "بنت النبي يوسف"

وضغطتُ زرَّ البحث.. ومرَّ شريطُ التحميلِ سريعًا وظهرت النتائج:

ـ "مانيسّا بنت يوسف التي أنجبها.."

ـ "سمَّاها مانيسا لأنها آنسته أحزانه..."

ـ "اسم جميل يُدعى مانيسا وهي بنت سيدنا يوسف.."

ـ "كان عليه السلام له من الأبناء مانيسا وإفرايم.."

هكذا إذن.. اسمها مانيسا..

مانيسا... ياسمين..

ياسمين... مانيسا؟!

هل ثمة رابط هنا؟... أي رابط؟

و... يا إله السماوات!

يا لك من محمود كافكا!!

***

-١٥-

مانيسَّـا... وياسـمين! وتطابـقٌ في حـروف الكلمتـين يـراه الملاحـظ اللبيـبُ! إذن فهـذا مـا قصدته يـا كافـكا؟ حبيبتك هي بنـت النبـي في نظـرك؟ لمحـض تشـابه الاسـمين في الحـروف؟ وإلام يوصلنـي هـذا؟ مـاذا عـن الذئـب والـدب و... لحظـة لحظـة! الذئـب.. ذئـب النبـي يوسـف عليـه السـلام! الذئـب الـبريء مـن دمـه! إذن.. فهـي الخطـوطُ العديـدةُ تتلاقـى يـا كافـكا! خطوطـك أنـت، ربطـت بـين كل هـذا لـشيءٍ مـا، للكثـيرِ مـن المعـاني في عقلـك، أنـت الـذي عشـتَ منعـزلًا عـن العـالم، اتخـذت رمـوزًا لـكل شيء، لا يفهمهـا سـواك، وانتهـى بـك الحـال هكـذا و.. ولا بـد مـن فـكِّ الخطـوط والعُقـد! حتـى أفهمـك حقًّـا يـا محمـود كافـكا! يـا مـن لفقتنـي السـبع دوخـات!

مانيسا، ليس الأمرُ تشابهًا بالحروفِ وحسب بل هو أعقد من هذا، المهم أنني عرفتُ أصل رموزك وخباياك، قصة النبي يوسف عليه السلام، وربما قصص أخرى للقط والغراب، ابني آدم مثلًا للغراب؟ فالغرابُ يُمثل الموت بالطبع كما تثبت الفراشة المرسومة في وقت موت قريبتك، وماذا عن القط؟!.. لحظة أخرى، هناك قطط في حياتك يا كافكا، وقد أبكتك من قبل، أبكتك حين ماتت!

الآن.. فلنكمل السعي، أخرجتُ ورقة فلوسكاب ضخمةً، كتبتُ عليها عشرات الكلمات، وعشرات الأفكار والخطوط، وبين الخطوط تتلاقى نقاطٌ مشتركةٌ مضيئةٌ قد تعني شيئًا ما، وأمامي الإنترنت السريع في حاسوبي الشخصي، سأضيفُ به المزيد من الأفكار والخواطر، فهلا نبدأ الآن؟ حينما اكتشفتُ اسم حبيبتك شيء... والآن بينما أكتشفك أنت ذاتك يا كافكا.. شيء آخر.. شيء مختلفٌ.. شيء أدعو الله أن أقدر عليه!

***

فلنبدأ من حيث انتهينا... مانيسَّا..

بنت النبي يوسف.. لكن هل هذا كل شيء؟

فلنبحثْ في الإنترنت عنها... مانيسًا فقط..

بحث..

مانيسا : مدينةٌ في تركيا!!

مانيسا : هي إحدى محافظات غرب تركيا يبلغ تعداد سكانها...!!

مانيسا : مدينة الأساطير !!

مانيسا : احجز أفضل فنادق مانيسا !!!

***

يخرجُ خطٌّ بلونٍ أحمر مُميز من كلمة مانيسا بنت النبي يوسف إلى كلمة الخاتم، الخاتم الذي ارتداه كافكا وعليه اسم مدينة تركية كما أخبر صديقه! من الأوقع أن تُخبر الناس أن خاتمك هدية من صديقٍ تركي على أن تخبرهم أن به اسم حبيبتك التي تراها بنت النبي يوسف! امنحني المزيد من أسرارك يا كافكا العجيب المُلغز!

لكن بعيدًا عن تشابه الحروف.. كيف ولماذا تنعتها ببنت النبي يوسف؟! ألا يُعد هذا مبالغة يا صديقي؟ ماذا فعلت أصلًا لتقولَ هذا عنها؟!! ما من سيرةٍ وافيةٍ لابنته عليه السلام حتى أبحثَ فيها عن طرف خيطٍ،

هـي مذكـورةٌ بالاسـم فقـط مـع أخيهـا إفرايـم، ولمـاذا تكتـب اسـمها في الخاتـم ثـم ترميـه وتعـودُ لتأخـذه مـن جديـدٍ و... و.. تفاقمـت الأفـكارُ والذكريـاتُ في ذهنـي، وعـادت تخطـر بلا تتوقـف.. تتشـعبُ.. تتشـابكُ.. تتـوالى وتجـرُّ بعضهـا البعـض..

***

- "محمود مصطفى.. يُنادونني محمود كافكا.."

- "كان منطويًـا علـى نفسـه طـول عمـره... انعزالـي مـن الدرجـة الأولـى.."

- "لا لكرة القدم... لا لمركز المدافع"

- "لـم يُحـب شـيئًا أكثـر مـن كتبـه وألعابـه وسـبيس تـوون.."

- "بـل أحـب (هنـد) ثـم (سـميرة) ثـم (ياسـمين)... كلهـن مليحـاتٌ بضفيـرةٍ.."

- "أخونُ صديقي وهذا مُحال"

- "يحملُ في جيبه دومًا زجاجة الفُل.. بل الياسمين.."

- "رأى القط ميتًا فبكاه كمن يبكي شخصًا عزيزًا"

- "شَعرك.. شَعرك يا باشمهندسة!"

- "صديقك ينعى تدهور الأخلاق في مجتمعه.. كأنه يعيشُ في مدينةٍ تُنادي بالإباحية"

- "صديقي أحبه كلام يُقال"

- "الغراب يعني الموت.. لا غربان أخرى في قصص الأنبياء.."

- "يتأثرُ بهاري بوتر كثيرًا.. ودان براون وتلك الكتب الضخمة.."

- "خلفيةُ الهاتف على شكل مرآة... هي الكاميرا الأمامية للهاتف.."

- "وهذا كلامٌ بليغُ الجمال"

- "موقف بسيط جدًّا هو ما أغضب كافكا مني.. تخيَّل هذا؟"

- "شكرًا لطوق الياسمين"

- "مسلسل عادي عن الصداقة الحقيقية.. يعتبره خياليًّا جدًّا"

- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"

- "كان يتهكم كثيرًا على ثياب الفتيات العادية.. ما بالك بالمغرية أصلًا؟!"

- "سمع خبر موت زميلنا في حادثٍ.. لم يتأثر ألبتة.."

- "كان خارجًا لتوِّه من تجربة موت قريبته الشابة.. لا يبكي عند ذكرها"

- "أقسم ألا أقول الأكاذيب"

- "استيقظتُ اليوم على حمَّام بارد... تبًّا للأحلام"

- "سأخترعُ نظارةً لحلِّ مشكلة الثياب الخليعة... ستجعل النظارة البنات في غاية العفاف!"

- "قرأ خمس روايات تتحدثُ عن الموت في وقتٍ قليلٍ"

- "مُحال يُقال الجمال خيال"

- "مانيسَّا بنت النبي يوسف"

- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"

- "كان يرتدي خاتمًا به اسم مانيسا"

- "كان عامه الثاني أفضل ما يكون.. حين حصل على جيد جدًّا"

- "سمَّاها مانيسَّا لأنها آنسته أحزانه"

- "أضـاع الخاتـم أكثـر مـن مـرة عـن عمـدٍ ويسـترجعه ثانيـة"

- "لم يعرفني وأنا أعزُّ صديقٍ له"

- "كان وفيًّـا جـدًّا لصديقـه... لكنـه زهـد فـي صداقتـي ولـم يتواصـل معـي"

- "نظـر لـي كأننـي لـوحُ زجـاجٍ أمامـه... المفتـرض أنـي فاتنتـه المحبوبـة!"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "ينظر في المصحف كل ربع ساعة"

- "ثمة زهور لا تذبل أبدًا"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "حبيتك بالشتاء وكرهتك بالصيف"

- "أطـرق فـي وجـوم عنـد ضيـاع الخاتـم... ثـم هـزَّ رأسَـه مستسـلمًا"

- "الخاتم به كلمة مانيسًّا"

- "هناك حقيقة واحدة فقط"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "يكفي"

- "سمَّاها مانيسًّا لأنها آنسته أحزانه"

- "قلتُ يكفي!"

***

-١٦-

فعلًا يكفي.. فقد استقرت الفكرةُ واختمرت في ذهني، أي فكرة هذه؟! وهل هي حقًّا ما أصبو إليه منذ بدأتُ بحثي؟! هل أخيرًا وجدتُ نهاية تساؤلاتي؟! هل أتخيَّل للحظةٍ أن تكونَ فكرتي خاضعةً للمنطق والحقيقة؟!! إلى الإنترنت للتأكد إذن، أعلم أنه سيؤكد لي أفكاري، هي فكرةٌ ممكنةٌ في الأدب والخيال العلمي ولكن... ماذا عن عالمنا المقيد بالواقع وحسب؟!! سأفكِّر بخيالي إذن.. فالخيالُ يستحيلُ علمًا في لحظةٍ، وربما فعلها كافكا بشكلٍ ما، أحتاجُ الآن لشخصٍ آخر غير دان براون ويوسف زيدان لمساعدتي، أحتاجُ خبيرًا في ما وراء الطبيعة، وفي نفسِ الوقت أحتاجه مثقفًا عاقلًا.. خليطًا بين ساحرٍ وأستاذ جامعة! ربما أحتاج لأحمد خالد توفيق؟

بحثتُ لساعاتٍ طوالٍ، ثم بحثتُ في الشبكة العميقة، حيث المواقع المحظورة التي لا تصلُ إليها بالمتصفحِ العادي، هناك وجدتُ مواقع السحر والشعوذة، بالتأكيد كان كافكا سيفعل هذا، سيبحثُ في النت ما لم يكن قد زار ساحرًا و... بالفعل! كافكا.. والنت والسحر! استخدمت الخاصية التي تسمح لي بالبحث عن كلمتين معًا في نفس المقال، محمود + كافكا + السحر + النسيان، وكلمات أخرى كثيرة، تباديل وتوافيق بلا نهايةٍ حتى.. حتى وصلت لنتيجةٍ! هناك طريقةٌ على النت، غير معقولةٍ هي الأخرى، لا لم أجد أي ذكر لكافكا بها ولكن.. ولكنها أعطتني الأمل في فكرتي، الآن.. لا ينقصني سوى التجربة.

***

التاسعة مساءً، والقمر يكتملُ في شموخٍ، أستقل الحافلة للمستشفى، وأسائلُ نفسي للمرة المليون.. هل أنا أشد المخابيل جنونًا؟!.. أم لعلي أذكى العباقرة جموحًا؟!! المعاني كلها واحدةٌ، تصفُ حالتي بدقةٍ، غباء وجنون.. أو جموح وذكاء وألمعية، سأعرفُ الآن... سأعرفُ كل شيء، لم يزدني البحثُ في النت سوى تردد يشوبه الأمل !

هـو هنـاك في المستشـفى.. يرقـدُ بانتظـاري، بانتظـار مـن يُخرجـه مـن غيابـه الـذي قـد يطـولُ، فهـل أفعلها؟ أرجـو فقط ألا أجـد شـهودًا عـلى تجربتـي، لا آمـال تنعقـدُ في الصـدورِ ثـم تذهـب جفـاءً، أم محمـود.. وبالـذات أبـو محمـود، أرجوكـما لا تكونـا هنـاك، فعلـت هـذا كلـه مـن أجـل وحيدكـما، والآن دعـاني أخـسرُ في سـلامٍ، لا تُعذبـاني بنظـراتِ اليـأسِ بعـد انتظار الفـرج، هـل أنـا في يقـينٍ مـن الخسـارة بهـذا الشـكل؟! إذن لمـاذا لا أعـودُ أدراجـي وأنـسى الأمـر برمتـه؟

لا... فأنـت ناديتنـي بصمـتٍ حـين طـاردك ذئـبٌ عرفـت معنـاه، ودبٌّ أنقـذك زورًا ولعـلي عرفتـه هـو الآخـر، ربمـا عرفـتُ كل شيء.. وربمـا لم أعـرف شـيئًا عـلى الإطـلاق، دعنـي مـن خواطـري الآن، هـا أنـذا أجتـاز الردهـة نحـو غرفتـك في الممـرِّ، أدخـلُ والأمـلُ يملـؤني.. يمتـزجُ بالرهبـة، لكنهـما كانـا هنـاك.. أجفلـت الأم لرؤيتـي، أمـا الأب فقـد احتـدَّت نظراتـُه شـيئًا فشـيئًا وبـدا أنـه... أسرعـتُ قائـلًا:

- "دقيقة واحدة فقط... لن أمكث أكثر من ذلك"

ولم أنتظـر لثانيـةٍ أخـرى، ذهبـتُ نحـو رأس محمـود مغمـض العينـين، لعلـه يسـمعني الآن، بالتأكيـد يسـمعني.. أذنـه.. عقلـه.. خيالـه.. وجـوده وكيانـه، مِلـتُ قليـلًا عـلى أذنـه.. يفعمنـي الشـعور نفسـه، وكـما يقـولُ علـماءُ الديـن..

الجمع بين الخوف والرجاء، ما قرأتُه في النت يُشجعني.. يكسيني بأملٍ طامحٍ، قلتُ أخيرًا وبصوتٍ مسموعٍ:

- "مانيسًّا"

***

انتظرتُ متوترًا، كأنها لحظة فك الأربطة عن عيني البطلة في الأفلام القديمة، هل ستبصر أم لا؟! فما لي لا أقدرُ على فك أربطة وعيك يا كافكا!

- "مانيسًّا"

المرة الثانية.. أقولها بإصرارٍ، لكن لا شيء.. لا إفاقة، الأم ترمقني في جزعٍ، تنساب دمعتان منها تُمزقان ضلوعي، الأب يوجه لي أعتى نظرات الاحتقار والضيق.. وربما الشماتة، تعويذتي لفك العمل السفلي لم تنفع، انتهى، الخطة فشلت، بل كما قلت من قبل.. ليست هناك خطة من الأساس، الكلام عن السحر محض ترّهات، رفعتُ رأسي عن رأسِه، أنظرُ إليه.. تمتلئ مُقلتاي بالدموع أنا الآخر، أقولها.. بكل يأسِ الدنيا وحزنها للمرة الأخيرة، بصوتٍ هزَّه البكاء والنحيب:

- "مانيسًّا"

و مـرت الثـواني بـلا إكـتراث بي ، أغمضـتُ عينـي مبتعـدًا عـن محمـود..أو كافـكا ، ذلـك الغائـب أيًـا كان اسـمه ، مديـرًا ظهـري لـه و لآلـه ، لم أفتـح عينـي حتـى وصلـت للبـاب ، لم أفتحهـا إلا حـين سـمعت شـهقة الأم خلفـي ، اسـتدرت ملهوفًا، رامقًـا كافـكا هنـاك..

وهنا..

وهنا فقط..

تحرّك الجسدُ..

وفُتحت العينان..

وهمس الفمُ بشيءٍ ما...

***



الجُزْءُ الثَّالِثُ

سجين



- ١ -

لا شيء آخـر.. هنـا النهايـةُ المتوقعـةُ لإيسـاف برصيصـة، بـين أنيـابِ دبٍّ وبفعـل صديـقٍ واشٍ، لا يعـرفُ الحلـم مـن الحقيقـة، كـما لم يعـرف الحـقَّ مـن الضـلالِ، كـما لم يُميـز الصديـق مـن العـدو، إيسـاف يـا أحمـق، ربمـا لـو لم تكـن أحمـق، لمـا وجـدتَ نفسَـك هنـا الآن، لكنـتَ مثـل نائلـة أو بروتـس يهـوذا، لكنـك لم تكـن مثلـه أو مثلهـا، عشـتَ مُذبذبًا طـوال عمـرك، لا تـدري أيـن الحـق، ولـو عرفتـه لا تفعلـه باطمئنـانٍ واقتنـاعٍ، ألا فسـحقًا لهـذا كلـه، ألا فسـحقًا لـك.

اركـع أمـام الـدب يـا إيسـاف، دعـه يبـدأ برأسِـك فيريحـك فيـما بعـد، اسـجدْ يا إيسـاف، اسـجدْ في اتجـاه الأرض المرسـوم، اسـجدْ كي تختبـئَ هنـاك بعيـدًا و... الصـوت، مـا ذاك الصـوت الـذي يُنـادي؟ وأي كلمـةٍ هـذه التـي أسـمعها..

- "مانيسَّا"

كلمةٌ غريبةٌ على مسامعي، من نفسِ عالم كلمة يوسف التي سمعتها من قبل:

- "مانيسَّا"

تتكرَّر الكلمةُ مجددًا بإصرارٍ، يسمعها الدب هو الآخر ويزومُ في غضبٍ، انشغل عني وكأنه ينتظر شيئًا ما، مرَّ الوقتُ ولم يحدث شيء، استعدَّ الدبُّ للفتك بي مجددًا، انكمشتُ في ملاءتي أكثر ولكن..

- "مانيسَّا"

وهنا ظهر شيءٌ ما، برز ظله قافزًا خلف الدب، كان.. كان ذئبًا، ذئبًا رماديًّا، هو نفسه الذي طاردني مرارًا في الأحلام، أنشب أسنانه في كتف الدب، الدب الذي هاج وماج ثم نزعه من كتفه صارخًا، ابتعدتُ في الركن أراقبُ المعركة، وكيف تتكافأ المعركةُ بين دبٍّ وذئبٍ؟ لكن الأخيرَ فاز بعنصرِ المفاجأة، والسرعة والشراسة، يقفزُ.. يخمش.. يعض، وكان ضخمًا يصلُ ارتفاعُه إلى خصري أنا، هكذا استمرَّت المعركةُ دهرًا، يزومُ الوحشان بلا نهايةٍ حتى كانت الغلبة للذئبِ، حين عضَّ عنق الدبِّ الذي تهاوى كشجرةٍ قطعوا جذورَها، الدم.. دم الدب كان أبيض، أبيض لزجًا ينزُّ دافقًا من جروحه.

وقـف الذئـبُ فـوق جثـةِ خَصْمـه المقتـول وعـوى طويـلًا، ونــزل مــن فوقهــا متجهًــا إليَّ، هــل أقــاوم.. هــل أُحــاول؟ الذئـبُ أهـون مـن الـدبِّ عـلى كل حـالٍ، الذئـبُ الـذي صرتُ أسـمع أنفاسَـه، إذ يدنـو.. ويدنـو ..و...

ـ "نجوتَ... نجوتَ يا كافكا"

كانـت هـذه مـن الذئـب! الذئـب يتكلـم؟! ومـا المشـكلة.. ألسـنا في حلـم؟

لكن.. مَن هو كافكا؟

ومَن مانيسًّا؟

ومَن النبي يوسف؟!!

***

-٢-

- "أنت تتكلم؟... ما زلنا في الحُلم؟ أليس كذلك؟!"

يبتسمُ الذئبُ.. لو كان لي أن أقولَ شيئًا كهذا:

- "ربما الآن هي الحقيقة، وكل ما عشته في العاهرة كان الحلم"

- "إذن فأنت تتكلمُ في الحقيقة؟"

- "الحقيقةُ والحلمُ.. نسبيَّان جدًّا يا صديقي"

- "صديقك؟! كيف أكونُ صديقك بعد كلِّ المرَّات التي طاردتني فيها؟! وما هذه الدماء التي تخرجُ منك؟"

دماؤه.. كانت بيضاء هي الأخرى، لزجةً تُلوث جروحه التي أحدثها الدبُّ، قلتُ مبتعدًا عنه:

- "أنـت مثلـه تمامًـا، نفـس الوحشـية.. نفـس الدمـاء، هـل ستُهاجمني بغتـةً؟ هـل سـتجلبُ أصحابـك بعوائـك هـذا؟"

يبتسمُ من جديدٍ:

- "دماؤنـا واحـدةٌ، لكـن ولاءنـا مختلـفٌ، برأيـك يـا كافـكا، مَـن الـذي نـاداك فـي كل مـرةٍ كنـتُ أطـاردك فيهـا؟"

- "لا أعرفُ... ما قصدُك بهذا السؤال؟"

- "أنـا يـا كافـكا! أنـا مـن كنـتُ أناديـك، لأنني لـم أكـن أُطـاردك، بـل كنـتُ أبغـي إنقـاذك"

- "لا أُصـدِّق، ولا أدري شـيئًا عـن كافـكا هـذا، كنـتُ أسـمعك تُناديـنـي بإيسـاف"

- "لأنك تظن أنك إيساف، بينما أنت كافكا.. محمود كافكا"

- "ماذا تنوي أن تفعل بي؟"

- "سـأعيدك للخـارج ثانيـةً، لكـن قبـل هـذا سـأُريك مـا قـد يُفيـدك، لمـاذا لا نغيـر لـك ملاءتـك الرثـة هـذه؟"

وفي نفـس اللحظـة، اختفـت عنـي المـلاءة وبـدلًا منهـا وجدتنـي أرتـدي ملابـس فاخـرةً أنيقـةً، ثقيلـةً تُدفئنـي.. نظيفـةً جميلـةً فعـلًا:

- "كيـف فعلـتَ هـذا.. و.. أتعـرفُ؟ شـعورُ الملابـسِ علـى الجسـدِ ممتـازٌ! نائلـة كانـت علـى حـق"
- "يُسـمونه المعطـف يـا كافـكا، ذاك هـو نوعـك المفضـل مـن الملابـس والآن.. لنتـركَ هـذا المـكان المبـارك"
- "المبارك؟... تعني هذا السجن؟"
- "ليس سجنًا كما أخبروك، هو مكانُ العبادة أصلًا!"
- "لا أفهمُ شيئًا... وما زلتُ لا أثقُ بك!"
- "ولماذا؟"
- "لأنك ذئبٌ!"

***

يَتَنَهَّدُ الذِّئْبُ

- "مظلـومٌ أنـا دومًـا، منـذ فعـل أخـوة يوسـف فعلتهـم وألصقوهـا بـي"
- "لا أعرفُ عمَّا تتكلمُ.. لكنك ذئبٌ"
- "أتعـرفُ أن البشـر فـي عالمـك، يتخـذون مـن الدببـة دُمـى يُقدمونهـا لبعضِهـم، كمثـالٍ للوداعـةِ واللطـف؟ مـع أن الـدب أشـرس منـي بكثيـرٍ، يـأكلُ فريسـته حيـةً

ببطءٍ شديدٍ.. وتتجاذبُ الدببةُ طريدتها حتى تتمزقَ أوصالًا وقِطعًا؟"

- "لكنك ذئبٌ!"
- "خُلقتُ ذئبًا.. لا ذنبَ لي في هذا"
- "مهما قلت.. أنت ذئبٌ!"
- "سأخبرك شيئًا عجيبًا، في عشيرتنا، حين نشتم بعضنا بعضًا، ما هي أسوأ سبة تتخيلها... يا ذئب! لا بالطبع... بل يا بشري!!"
- "أنتم الذئاب هكذا... منذ كانت ذات الجسد الأحمر!"
- "الواقع أنها ذات الرداء الأحمر! لكنك لا تعرفُ أن في القصة الأصلية، شاركت الفتاة الذئب في أكل جدتها!"
- "اكذب كما تريد.. فأنت ذئبٌ! تأكل الأرانب الصغيرة المسكينة!"
- "لا أكذب، كما أن الأرانب تكشفُ لي نفسَها بسخاء، وأنا أحب اللحم! هكذا خُلقت!"
- "في النهاية تظل الذئبَ الشريرَ القاسي"
- "صدِّقني قد أكونُ ذئبًا، لكنني مع حبيبتي.. ذئبتي، أصيرُ أرق من غزالٍ"

***

-٣-

- "لا أفهمُ شيئًا منك.. ولا أستطيعُ الوثوقَ بك، رغم أن هذا محض حلمٍ.. كله في رأسي"

يمدُّ الذئبُ إحدى قائمتيه الأماميتين إلى صدري كأنه يربتُ عليه، لم أبعد يده عني.. كأنني أعرفه رغم خوفي منه، كأنه مني، يقول باسمًا:

- "ليس معنى أنه يحدثُ في رأسك.. أنه ليس حقيقيًّا.. هكذا علمتنا رولينج.. أتذكرها؟"

- "لا أذكرُ شيئًا!"

- "ربما تذكرُ حين تعود، والآن دعنا نرى هذه المشاهد معًا، لن أفعلَ بك كما فعلوا، سنرى أحداثًا تمت بصلة لك أنت، عسى أن تنفعك فيما بعد حين تفهمها فهمًا صائبًا"

***

وفي اللحظةِ التاليةِ، اختفت الزنزانة، اختفى العالم كله إلا مني والذئب، وبدأت مشاهد جديدة تحلُّ محلها حولنا، كأنه عرضٌ مسرحي مُتقنٌ، كانت الصحراء ممتدةً أمامنا بلا حدودٍ، وبنظرةٍ للخلف وجدتُ سورًا وبوابةً والكثير من أسلاكٍ حديديةٍ شائكةٍ وملتفة، هناك برجان عاليان فيهما رجلان يرتديان ملابسَ ثقيلةً مبهرجةً، يختلطُ فيها الأخضر والبني والكاكي، ويقفُ كلٌّ من الرجلين خلف ما بدا كمدفعٍ معدني مصغرٍ جميلِ الشكل، تطوَّع الذئبُ بتفسير ما أراه دون أن أسأل:

- "هذه الملابسُ تُسمى الرداء المموَّه، وهذان الرجلان جنديان من الجيش، يُدافعون عن البلاد ضد غزو الأعادي، سترى الآن ما قصدته من اصطحابك لهنا، تصرَّف كما تُحب، لا أحد يرانا أو يسمعنا، تخيل أنك في عرضٍ مسرحي يجري دون اكتراثٍ بك"

ورأيتُ البوابة تُفتح، يخرج منها الكثير من الجنود، وقفوا أمام البوابة، يتعانقون ويبكون جميعًا، كل جندي يُعانق زميله بحرارةٍ ويبكي:

- "أهم ذاهبون للحرب؟"

سألتُ الذئبَ مستغربًا:

- "بـل هـم يُودعـون بعضهـم البعـض، فبعضهـم أنهـى مدتـه المطلوبـة كجنـدي فـي الجيـش، وهـم الآن يرحلـون عائديـن لبيوتهـم وعائلاتهـم"

وانتهـى الـكلُّ مـن الـوداع، ورحـل مـن رحـل وبقـي جنـودٌ آخـرون، عـادوا إلى بوابتهـم يمسـحون دموعهـم:

- "تعالْ معي.. لذاك الجندي هناك"

قالهـا الذئـبُ وسـار خلـف أحـد الجنـود، يُشـبهني إلى حـدٍّ كبـيرٍ، تبعتـه متسـائلًا عـن قصـده، لكـن الجنـدي لم يفعـل شـيئًا، انتبـذ ركنًـا بجـوار أحـد المبـاني وانخـرط في بكائـه وعويلـه، لم ينقطـع لحظـةً عـن حزنـه، بـل زاد فيـه:

- "برأيك.. لِمَ يبكي؟"

سألني الذئبُ، فرددتُ بتلقائيةٍ:

- "ربما من أجل أصحابه"

- "بالفعـل.. هـو حزيـنٌ لفراقهـم، رغـم الأيـام الصعبـة التـي قضاهـا معهـم، لكـن مـا يُبكيـه بحرقـةٍ هكـذا؟ مـع أنـه يملـك إمكانيـة المراسـلة فيمـا بعـد، يُرسـل لهـم الخطابـات وربمـا يقابلهـم كذلـك".

- "تعني أن الأواصر لن تنقطع بينهم؟ "

- "إطلاقًا.. هم قادرون على لمِّ شملهم في كل مرةٍ بتلك الرسائل ولو أنها تستغرقُ وقتًا بين البلاد البعيدة"

- "ربما يبكي إذن لأن الرسائل تستغرق وقتًا!"

هنا ضحك الذئبُ:

- "أتعرفُ.. فيما بعد هذا العصر، ستكون الرسائل أسرع مما تتخيل، سيمكنك التحدث مع صديقك مباشرةً بمجرد أن تنوي ذلك، ولكن ذاك الجندي المشتاق لصحبه، سيبكي حتى في عصر الاتصالات السريعة والرسائل اللحظية!"

- "حقًّا.. ولماذا؟"

- "هذا ما أريدك أن تفكر فيه حين تخرج من هنا"

- "أخرج إلى أين؟"

- "ستعرفُ حين تخرج، والآن دعنا نُكمل جولتنا في الصحراء"

***

ـ "أترى هذا المشهد هناك؟"

أشـار الذئـبُ الرمـادي برأسِـه في اتجـاهٍ مـا، لم أرَ في البدايـة إلا مـا ظننتـه شـيئًا بُنِّـي اللـون بـلا ملامـح وسـط الرمـال الـلا منتهيـة و..

ـ "قِطي... إنه قِطي المشمشي"

عرفته، كان هناك يمرحُ مع الظلال كما في حُلمي:

ـ "إذن فأنت تذكره، هل تعرف نهاية الحلم؟"

ـ "سيصيده الغرابُ، سيموتُ بين مخالبه"

ـ "لماذا لا نرى بأعيننا؟"

ـ "لا أحب رؤية هذا ثانية"

ـ "لا تسبق الأحداث يا كافكا!"

وبالفعـل.. لمحـتُ الغـراب هنـاك، أعـلى القـط.. يرصـده بتـؤدةٍ، راح يقـتربُ منـه، يهبـطُ كأنـه أعظـم الصقـور... يبغـي القـط فريسـةً سـهلةً:

ـ "سيفعلها... لن أنظر!"

وأغمضـتُ عينـي بعصبيـةٍ، لكـن يـد الذئـب لكزتنـي برفـقٍ:

- "أنظر فقط الآن"

ونظـرتُ في حـذرٍ، القـط... القـط الأريـبُ يلمـحُ ظـل الغـراب حـين دنـا منـه، ينظـر أعـلاه، يتوتـر.. تقـفُ شـعيراتُ فـروهِ في تأهـبٍ، الغـرابُ لا يُبـالي، يُواصـل هبوطـه الكاسـح، لكـن القـط يثبـت رامقًـا عـدْوه مضيقًـا عينيْـه، رغـم اقـترابِ الغـراب أكـثر وأكـثر:

- "احذر!"

القـط لا يسـمعني، حتـمًا لا يفعـلُ عـبر هـذه المسـافة، لكنـه يعـرفُ مـا هـو مُقبـلٌ عليـه، فعلهـا في اللحظـة المناسـبة، وثـب وثبـةً هائلـةً، فـاردًا قوائمَـه ذات المخالـب في إعجـازٍ، مسـتقبلًا الغـراب الـذي صرخ مـن المفاجـأة، وإذ بالقـط يقتنـصُ عـدوه، وإذ بالكابـوس ينقلـبُ حلـمًا جميـلًا:

- "لا أُصدِّقُ ما أرى"

القـط يهبـطُ بفريسـته، يعتليـه بقائمتيـه الأماميتـين، يقتلـه فـورًا صادحًـا بمـواء المنتـصر، يتركـه أخـيرًا.. زاهـدًا في أكلـه، عائـدًا إلى لعبـهِ ومرحـهِ:

- "إذن.. فهو لن يسرقَ مني قطي"

يُومئ الذئبُ برأسهِ ويُشير للغراب الصريع:

- "ليس هذا كل شيء، فالآن.. يأتي أخو الغراب ليدفنه مكانه"

- "يدفن أخاه؟"

- "هذا ليُعلِّم الإنسان دفن الموتى، انظر لهذين المتنازعين هناك"

وأبصرتُ رجلين شبه عاريَيْن، هاجم أحدهما الآخر بصخرةٍ عملاقةٍ ليُرديه قتيلًا، ويرمق القاتل ضحيته في صمت المذهول:

- "هذه أول جريمة قتلٍ في التاريخ، أتعرفُ لماذا يا كافكا؟"

- "أذكر شيئًا كهذا، قتله من أجل أنثى يتعبدُ معها لنفسه"

- "ليس بالضبط، فالواقعُ أن الأخ قتل أخاه طمعًا في امرأةٍ ليست له، امرأة جميلة وحسب!"

- "قتل أخاه من أجل هذا؟!"

- "وهل هذا شيء قليلٌ؟ إنه جمالُ المرأة يا صديقي! مِن أجله كتبتُ الأشعار وحكيت السير والأخبار، ومن أجله.. كانت أول جريمةٍ في التاريخ!"

***

- ٤ -

- "ما رأيك الآن أن نزورَ مسجدًا بحقٍّ؟"

قالها الذئبُ، وتغيرت الدنيا، وجدتني في مكانٍ فسيحٍ، يموجُ بالسكينة والوقار، أرضه سجَّاد أخضر عليه النقشة ذاتها تشير لاتجاهٍ واحدٍ، وهناك جسمٌ خشبي مُزخرفٌ بديعُ المنظر له درجاتٌ تنتهي بمكانٍ للجلوس، خلا المسجد بأكمله من الناس إلا ثلاثة نفرٍ، كانوا جلوسًا في أحدِ الأركان يستندون إلى الحائط الرخامي خلفهم، أشار الذئبُ إليهم فذهبنا نستمع، توسط الثلاثة شاب مليحُ الوجه، كث اللحية أخضر العينين، وحوله فتيان بدا أنهما يستشيرانه في أمرٍ ما، قال أحدهما:

- "يا شيخ.. لي عندك مسألة.. بل اثنتان"

قال ذو اللحيةِ:

ـ "تفضل!"

ـ "هل ينبغي خلع الخاتم عند الوضوء؟"

يتنحنح الشيخ ويقول في تؤدةٍ:

ـ "لا يجب عليك ذلك، يمكنك تحريك الخاتم فقط في الأصبع دون خلعه، وبهذا تُمرر الماء على موضعه في الأصبع، وفي نفس الوقت لا تضطر لخلعهِ"

يصمتُ الفتى قليلًا، ينظرُ إلى كيسٍ قماشي مُعلقٍ على الجسم الخشبي ذي الدرجات، كيسٍ مزخرفٍ وملونٍ برسوماتٍ زاهيةٍ جذابةٍ، وثمة كتابة عليه بلغة أهل الروم، يقولُ الفتى بسرعةٍ كأنه لا يرتاحُ لهذا السؤال:

ـ "يا شيخ... هل الرسم حرام قطعًا؟!"

ـ "رسم الحي من الكائنات، أما رسمُ الأشياء الجامدة فلا بأس، وقد لقي الإمام عليٌّ كرم الله وجهه رجلًا يعمل برسم الأشياء، فأشار عليه أن يترك هذه المهنة، فقال الرجلُ إنها صنعته التي يرزقه بها الله قوت يومه، فأمره الإمام أن يبتعد عن رسم البشر"

ـ "إذن فالرسوماتُ على هذه الشنطة حلالٌ يا شيخ؟"

وأشار الفتى للكيسِ القماشي، ردَّ الشيخُ بعد هنيهةٍ:

- "هـذه الشـنطة نسـيها أحـدُ المصليـن فـي المسـجد، لـذا نحتفـظُ بهـا هنـا لعلـه يراهـا يومًـا مـا"

- "ماذا عن الأشجار والنباتات بها؟"

- "لا بأس بها فهي ليست ذات روحٍ"

قال الفتى الآخر:

- "هناك فراشةٌ مرسومةٌ يا شيخ فماذا عنها؟"

هنـا صمـت الشـيخ ولم يـرد، واسـتأذن في الذهـاب، تـاركًا الفتيـان ينظـران لبعضهـما في صمـتٍ، قـال أحدُهـما أخـيراً:

- "نسيتُ أن أسأل عن شيء آخر طرأ بذهني بالأمس"

- "أي شيء؟"

- "إذا سـمع المـرء أذانيـن للصـلاة فـي وقـتٍ واحـدٍ، فخلـف أي مـؤذنٍ يُـردد الكلمـات؟"

تَفكر صاحبُ الفتى قليلًا، ثم قال وهو يهمُّ بالقيام:

- "أرى أنه لا داعي لهذا السؤال"

- "وَلِمَه.. هل تعرفُ إجابته؟"

يمـدُّ الصاحـبُ يـده للفتـى الجالـس ليُسـاعده عـلى القيـام، ويقـول:

ـ "اختر لك أذانًا منهما... وردِّد خلفه!"

أطـرق الفتـى حـين قـام.. ثـم أومـأ في تسـليمٍ، وبـدأ المشـهدُ يتغير، عُدنـا إلى الصحـراء ثانيـة، وقـد صـار الجـو ليـلًا دفيئًـا، تفـترشُ النجـوم السـماء وتكللهـا بأبهـى إكليـلٍ، بـدت في قمـة روعتهـا في هـذا الخـلاء، اطمأننـت قليـلًا إلى الذئـب، وجـدتُ يـدي تمُسـد عـلى رأسـهِ الناعـم وحدهـا، قـال لي:

ـ "أتتذكر ما قيل لك عن الدين يا كافكا؟"

ـ "الدين؟.. تقصد أن الدين تدخين؟"

ـ "بالضبط... هل ما زلت تراه كذلك؟"

ـ "لا أدري... حقًّا لا أدري"

ـ "أتعـرف.. هـذا الوصـف يسـري علـى كثيريـن للأسـف، ومنـه يأتـي التدخيـن السـلبي"

ـ "السلبي؟... وكيف هذا؟"

ـ "أن يُصيبـك المـرء بدخانـه دون قصـدٍ منـه، أو بقصـدٍ، وقـد يُعطيـك التبـغ نفسـه لتدخنـه معـه فـي النهايـة، فهـل سـتقبل عندهـا؟"

- "يبـدو لـي أن كل مـا عرفتـه فـي العاهـرة.. هـو أبطـل الباطـل، وفـي هـذه الحالـة، ألا تكـون قاعـدة أن الديـن تدخيـن كذبًـا هـي الأخـرى؟"

- "هـل أدركـت حقًّـا أن مـا عرفتـه هنـاك كان أبطـل الباطـل؟ هـل اقتنعـت بشـيء أخيـرًا؟"

لم تصـدر منـي إجابـةٌ لسـؤال الذئـب، لكنـي تذكـرتُ الجملـة الروميـة عـلى الكيـس القـماشي المُسـمى الشـنطة، كانـت بديعـة المعنـى حـين فكـرت فيهـا الآن

Everything grows with love

***

-٥-

سألني الذئبُ مُقترحًا

- "هل نرى الآن الحلم الثاني؟"
- "تعني حلم الذئب.. والدب؟.. هل يُمكننا؟"
- "بالتأكيد.. دعنا نفعل هذا الآن!"
- "لا داعي لهذا!"
- "ولِمَ لا؟"
- "لا شك أن الدب سيقتلني، أو ربما يلقي بي في البحر"
- "حدث هذا حقًّا، رمى الدب بنفسهِ في البحر لتموتا معًا"
- "هذا يعني أن الدب كان ضدي منذ البداية، العاهرةُ كلها ضدي، في الحلم والحقيقة، لكني لم أدرِ إلا متأخرًا.. أليس كذلك؟"

- "دعنا من الحلم والحقيقة، دعني أريك هذا المشهد الأخير قبل عودتك يا كافكا"

- "اشتقتُ إلى عودتي هذه.. مع أني لا أعرفُ إلامَ سأعودُ!"

- "هم أيضًا اشتاقوا إليك، والآن.. ستعيشُ هذه المرة المشهدَ بنفسك، أنت بطله.. كمسرحيةٍ تمثلها، بعدها نلتقي لآخر مرةٍ يا محمود".

***

مصر المباركة، غنية بحقولِها الشاسعة، تلمعُ فيها سنابلُ القمح تحت الشمس الزاهية، أغلى من الذهب وأشهى من اللحم، فالقمحُ يعني الطحين.. يعني العجين.. يعني الخبز، وقد مضت سنواتُ الجفاف على خيرٍ، تم فيها ما خطط له العزيزُ بفضل الله العلي القدير، ثم بفضلِ عبده النبي الذي بارك به الأرض والعباد، النبي الكنعاني الأجمل من كل جميلٍ، يوسف بن يعقوب عليه أفضل الصلاة والسلام.

هكذا فكَّر إسحق بن حور بينما يمسحُ عرقه، مستريحًا تحت ظل نخلةٍ بعد العملِ الشاق في حقل القمح، أتاه من بعيدٍ صديقُه المُقرب يعقوب، يحملُ سلال الطعام

الشـهي، يُنـاول إسـحق سـلته ويخـرج الخبـز الطـازج والإدام الطيـب، يـأكلان في صمـتٍ يلاحظـه يعقـوب ويسـتثقله:

- "مـا بـك يـا إسـحق؟ أيـامٌ طويلـةٌ مـرَّت وفمـك عاكـفٌ عـن الـكلام، أراك مطرقًـا علـى الـدوام كمـن نزلـت بـه نازلـة، أخبرنـي يـا أخـي، علّـي أسـاعدك أو أدعـو اللـه أن يُخفـف عنـك"

- "أسرحُ في ملكوت الله يا صديقي"

- "بـل تسـرح فـي بنـات حـواء! منـذ أمـرك أبـوك بالبحـثِ عـن زوجـةٍ مناسـبةٍ وأنـت سـاهم كأنـك تسـتعرضُ مـا خزنـت مـن صورهـن فـي عقلـك"

يضحكُ إسحقُ بشدةٍ، بينما يُبلل اللقمة بالخلِّ:

- "تعرفنـي كنفسـي يـا يعقـوب، أنـا فعـلًا سـارحٌ فـي هـذا الشـأن، لكنهـا واحـدةٌ فقـط يـا صاحبـي مـن تعنينـي، عندمـا أُفكـر فيهـا، أذكـر ملكـوت اللـه فـي الوقـت نفسـه، لأن كل جمـال الملكـوت قـد تمثـل فيهـا حتمًـا، هـي مثـالُ جمـالِ الخالـق القديـر فـي إمائـهِ"

- "حقًّا؟!.. مَن هي إذن؟"

- "أنت لم ترَها يا يعقوب"

- "صِفها لي إذن!"

- "أنا أيضًا لم أبصرها لمرةٍ واحدةٍ"

يرمقُ يعقوبُ صديقَه بامتعاضٍ:

- "أتهزأ بي يا أخي؟ سأدعك لخيالاتك العجيبة إذن"

وهمَّ يعقوب بالقيام إلا أن إسحق تمسَّك به:

- "على رِسلك يا صديقي، حاشا لله أن أهزأ بك"

- "وكيف تُحب امرأةً لم ترها؟.. أفقدت عقلك على كِبر! "

- "ليس الأمرُ كذلك، أعرفها لكني لم أرَها"

- "لا أفهم شيئًا، كيف عرفتَ أنها جميلةٌ إذن؟"

- "لأنها بنته يا يعقوب"

- "بنت من؟"

- "بنت النبي"

اتسعت عينا يعقوب للحظةٍ، كأنه لا يُصدق صاحبَه فيما يقول:

- "تقول بنت من؟"

- "بنت النبي يوسف".

***

- "فعلًا فقدت عقلك يا أخي! أترغبُ في بنت النبي يوسف؟"

- "أرغب فيها زوجةً لي، لقد سمُّوني باسم جد النبي كما سمُّوك أنت باسم أبيه، نحن جميعًا نُبجله ونُعظمه ونُحبه"

- "لأنه القائمُ بخزائن مصر، والأهم من هذا؛ لأنه نبي من الله للعباد"

- "وأنا أرجو مصاهرته، أيوجد في الدنيا صهرٌ أعظم من هذا؟"

- "بالطبع لا، لكن الجميلات كُثر، ولن تعدمَ جميلةً تجدها بدلًا من بنت النبي نفسها"

- "وهل هناك مَن هي أجمل من مانيسَّا بنت النبي أجمل البشر؟، ألم يأمرنا اللهُ أن نطمعَ في كرمهِ وعطائه؟"

- "لكنك تبغي الزواج منها لجمالها، والجمال يذوي مهما دام"

- "ومَن قال لك إنني أُفكر في حسنِها وجمالِها وحسب؟ بل هي أكمل النساء على الإطلاق، الحسب والنسب، سليلة الأنبياء يا صديقي، أهناك

من يُجابهها في ذلك؟ والمال والغنى، والأهم من هذا كله يا يعقوب، دينها وإيمانها، جدْ لي من يفوق بنت النبي في دينها!"

- "كلامك أقنعني يا أخي، ولكن.."

- "ولكن ماذا؟"

- "أنت تريد، لكن أين أنت من كل هذا؟"

- "ماذا تعني؟"

- "أأنت جديرٌ ببنت النبي؟"

مالت الشمسُ إلى الغروب، ونادى عصفورٌ صغاره إلى المبيت، ولم يجد إسحق ما يُجيب به صديقه:

- "تعني أن.."

- "كلنا نريدُ بنت النبي، كلنا نطمحُ في هذا، لكن من فينا يستحقه؟"

وأطرق إسحق من جديدٍ، وسالت دموعُه على خدَّيه:

- "إسحق يا صديقي، لا أحد منا جديرٌ ببنت النبي يوسف، صدِّقني.. لا أحد!"

***

وعـدتُ مـن إسـحق بـن حـور، إلى إيسـاف برصيصـة، بـل إلى محمـود كافـكا كـما يُخـبرني الذئـب.. ذئبـي، عُدنـا إلى زنزانـة المسـجد، تلـك الغرفـة المنقوشـة أرضيتهـا، قلـتُ للذئـبِ:

ـ "يُشبهني كثيرًا إسحق هذا"

ـ "يُشبهك في الطبع والغاية وليس في الشكل فقط"

أتأمـلُ المـكان حـولي، عشـتُ فيـه أصعـبَ لحظـاتي، لكـن الفـرجَ جـاء منـه أيضًـا:

ـ "لماذا أتيت بي إلى هنا؟"

ـ "لأنـه المـكانُ الـذي ظلمتـه كثيـرًا، وظلمـه الكثيـرون، سـتكون عودتـك منـه"

ـ "تعني أنني سأعودُ الآن؟"

ـ "هُـم بانتظـارك، ربمـا تعـرفُ الآن كيـف تعيـشُ حياتـك يـا كافـكا!"

ـ "أيمكنني أن أسألك عن شيء؟"

ـ "بالطبع.. أنا طوعُ أمرِك"

ـ "هل فاز إسحق ببنت النبي يوسف؟"

ـ "هذا ما لا أملك إجابته يا إسحق! "

- "أريد فعل شيء قبل أن أذهب"

- "أتود الاعتذار لنائلة؟"

- "ربما.. ولكني ما قصدتُ هذا"

- "إذن.."

- "قصدتُ هذا"

وسجدتُ على الفور، في اتجاه السجود المُحدد، سجدة طالت وطالت، أليس ما عرفته هو أبطل الباطل، فلا شك أن عكسه هو أحق الحق، قمتُ من السجود وذهبتُ تجاه الذئب، ما زال هناك شيء آخر، قلتُ له:

- "لكنني.. لم أعرفْ مَن أنت بالضبط"

- "انظرْ في عيني.. تعرفْ من أنا"

نظرتُ إليه مليًّا، لكنه أومأ باسمًا:

- "انظرْ عن كثبٍ في عيني.. وقلْ لي ماذا ترى"

ودنوتُ منه، ونظرتُ في عينيْه الواسعتيْن، توقعت أن أرى نفسي ولكن.. وجدتُ ذئبًا يُحدِّق بي! ذئبًا رماديًّا آخر.. يُشبه ذئبي، أفي عيون الذئب فقط.. أرى نفسي ذئبًا؟! هنا عانقته.. كقطٍّ أليفٍ لا أخشاه، وطفَت دموعي لانتهاء كل العذاب.. بسببه:

- "لـم أتوقـع يومًـا أنـي سـأعانق ذئبًـا، لكنـك أنقذتنـي فعـلًا"

- "أنا معك دومًا، أنا بانتظارَك يا محمود"

***

الجُزْءُ الرَّابِعُ

صديق



ـ ١ ـ

ـ "مانيسَّا"

قالها محمود بنفسهِ، فاتحًا عينيْه يرمقنا:

ـ "محمود"

قالهـا الأب والأم في مزيـجٍ مـن الشـوقِ.. اللوعـةِ.. الارتيـاحِ.. الحمـدِ؛ راح الاثنـان يُعانقانـه ويُقبلانـه، يُبللانـه بدمـوع الفـرح، لا يكفَّـان عـن حمـد اللـه وشـكره، يذكـران اسـم ابنهـما بـين التحميـدة والأخـرى، وقفـتُ أنـا بعيـدًا أبـكي في صمـتٍ، النظريـة نجحـت إذن وتعبـي لم يضـع هبـاءً، أمـا محمـود فظـل يرمـقُ الكـون حولـه بـلا تعبـيرٍ، نظـر لي طويـلًا ولم يقـل شـيئًا، رفـع أبـوه ظهـره وأسـنده إلى السريـر فـراح يرمقنـا كأنهـا المـرة الأولى:

ـ "أنتَ أبي؟.. وأنتِ أمي؟!"

سأل محمود أبويْه، فردًّا بالإيجابِ في دهشةٍ:

ـ "محمود... ألا تعرفنا؟"

ـ "لا أعرفكم"

نظر الوالدان لبعضهما في قلقٍ، قلتُ مُتجهًا للباب:

ـ "سأنادي الطبيب"

ـ "انتظر يا عبد الملك"

قالها الأب متراجعًا عن مكانه، مدَّ يده مصافحًا فمددتُ يدي إليه.. أخذ بيدي وألفيته يُعانقني بقوةٍ:

ـ "سامحني يا بُني.. سامحني أرجوك!"

ونظر لي، تملأ الدموع عينيْه:

ـ "لا بأس يا عمي... لا بأس أبدًا"

وأخذ يدي إلى محمود سائلًا:

ـ "ألا تعرفه يا محمود؟"

ـ "لا أعرفه"

تقول الأم ودمعها لا ينقطع:

ـ "هذا مَن أنقذك يا محمود.. مَن أعادك إلينا"

ـ "أنت أخي؟"

يسألني محمود، فيجيبُ أبوه:

ـ "بل هو صديقك يا محمود.. أوفى صديقٍ لك"

ـ "صديقى هو من أنقذني ؟!..لا أصدق !"

***

وأتى الطبيبُ وراح يسألُ محمود أمامنا:

ـ "٥ × ٦ بكام يا محمود؟"

ـ "ثلاثين"

ـ "عاصمة فرنسا؟"

ـ "ما هي فرنسا؟"

ـ "أين نحن الآن؟"

ـ "لا أدري"

ـ "أتعرف اسمك الكامل؟"

ـ "محمود كافكا"

ـ "اسمك، وليس اسم الشهرة؟"

ـ "هذا اسمي الذي أعرفه، كما أخبرني الذئبُ"

ـ "الذئب؟!.. ومتى أخبرك الذئبُ؟"

ـ "في الحُلم، قبل أن آتي إلى هنا"

ـ "كنتَ تحلمُ بالذئب؟"

ـ "حلمتُ بالذئب، وقال لي إنني سأعودُ"

ـ "ألم يُخبرك بشيءٍ آخر؟"

ـ "أخبرني عن بنت النبي يوسف"

***

-٢-

عاد محمودُ إلينا صفحةً بيضاء، كما يحدثُ لمن يجري عمليةً جراحيةً في المخ، لا يعرفُ الكثير عن عالمنا وإن ذكر أن حياةً كاملةً كان يعيشُها في غيبوبته، لم يحلم بشيرلوك هولمز ومثله من أبطال الخيال كما ذكر صديقه أحمد جميل، بل عاش في عصرٍ عجيبٍ وبقوانين أعجب، زمنٌ غابرٌ ما زال يُضاء بقناديل زيت الحوت وتُسمى فيه الميكانيكا بعلم الحِيل النافعة، حوى الحلم تفاصيلَ حميمةً توترنا جميعًا لسماعها، في رقودِه الذي لم يُناهز الشهر قضى محمود سنين مديدةً وشهد طفولةً وشبابًا، فالزمنُ لا اعتبار له في الأحلام كما أخبرنا الأطباء، ذكروا كذلك أن هذا العالم يُعبر عن العقل الباطن لصاحبه، دواخل محمود في أعمق أعماق عقله، لكني كنتُ أفهمه أكثر من أيِّ شخصٍ آخر، سمعتُ منه القصة كاملةً مراتٍ عدة بمفردي، وقارنتها بما عرفته عنه من التحري والبحث.

كل ما رآه محمود له شبيهُه في التاريخ بالفعل، خاصة العبادات الإباحية وتفاصيلها، منذ كانت احتفالات الخصوبة لدى الوثنيين، وحتى الآن تقرُّ بعض الأديان هذا النوع من التعبد، اللذة الجسدية لرضا الرب، قد يكونُ هذا خيرَ دليلٍ على نظرية الوجدان الجمعي، أي أن حلم كافكا الطويل لم يكنْ سوى ذكريات أجداده مجتمعةً منذ أغبر العصور، أو ربما هي خبراته وقراءاته التي تحوَّلت لقصةٍ طويلةٍ عاشها، بالفعل زار محمود الكثيرَ من الأطباء ودرسوا حالته بدقةٍ، كما أجرى أحدُ الصحفيين حديثًا معه خاصة أنه الأول على دفعته، بل الأول في تاريخ الكلية في ٣ ميكانيكا إنتاج!.

لكنه احتاج لخمسة شهور كاملةٍ كي يعتادَ عالمَه الجديدَ وينسى الحياةَ التي عاشَها في (العاهرة)، وأبطال حُلمه الذين حملوا أسماء الزَّانين والخائنين وأشرار التاريخ بخلافِ صاحبيْ سجنه! كان يذكر حياة الحُلم كذكرى ضبابيةٍ رغم كل شيء، نشرحُ له تفاصيل العالم الحقيقي كأنه طفلٌ صغيرٌ يكتشف الدنيا، وهنا كانت الحلقةُ المفقودةُ، لماذا لم يرجع محمود إلينا بكامل ذاكرته؟ هل فقدها أصلًا قبل الغيبوبة؟ لم ينشغل الأبوان بهذه الأسئلة وإنما تفرَّغا لعلاجِ ابنهما الذي عاد بعد غيابٍ، كان محمود مُتجاوبًا مع عالمه الأصلي كذلك، سهل التعلم، ويسعد بكلِّ فضيلةٍ

يراها بعد عُهرِ العاهرة! يتفاعلُ مع الناس بسلاسةٍ مثل أصدقائه القدامى وأقاربه، وخاصة أنا حيث تقرَّبتُ منه أكثر وصرتُ مُرشده الأول. يسألني دومًا عن طريقتي التي اتبعتها لإنقاذه، ويسألني أبواه عن حكاية كلمةِ مانيسَّا، لكنني أصمتُ مُفضلًا الانتظار حتى حينٍ.

وبالفعل وجدتُ في النهاية شيئًا، أزاح الكثيرَ من الضباب، لن أخبرَ محمود عن بحثي واستنتاجاتي، هو من سيُخبر نفسَه بنفسِه.

***

لستُ عبقريًّا، بالتأكيدِ لستُ كذلك، لكني فقط طوعتُ خيالي في البحث، فكرت بعقليةِ كونان حين يحلُّ ألغازه، كل شيء مُمكن، والنت عضَّد فكرتي، ولم ينقصني إلا التجربة، وحين أجريتُ التجربة، أتت أكلها ولله الحمد، هكذا فكرتُ بينما أسلكُ الطريقَ نحو مُدرج ٢٢٤ حيث ينتظرني محمود، عاد إلى جامعته بعد الإعدادِ اللازمِ، كان مُسالمًا مع زملائهِ في العام الدراسي الأخير، يرتاحُ لقدرِ الاحتشام الذي يراه، يستقبلُ الهندسةَ بشغفٍ حقيقي، مذهولًا بكلِّ التطور الذي بلغ العلمُ بجوار ما درسه من حِيَلٍ نَافعةٍ.

صعدتُ السلالم مُسرعًا، راغبًا في لقاء محمود بأسرع ما يُمكن، كي أعرضَ عليه كَنزي الذي وجدته، يُمكننا الآن أن نُصلحَ كل شيء يا صديقي، دخلتُ المُدرج الصغير، كان خاليًا إلا منه، فالمحاضرةُ انتهت منذ ربع ساعة، ألفيته جالسًا عند حرف البنش، في مكانه المفضل كما أخبرته، يشربُ شايًا في كوبٍ ورقي ويُطالع كتابًا ما، رآني فابتسمَ بودٍّ، ذهبتُ إليه وصافحته مُقبلًا وجْنتيْه:

- "أوحشتني يا صديق"

- "أنت أكثر"

- "كيف تجدُ مُتسعًا من الوقت لتراني كل أسبوع؟"

- "قلتها بنفسك! من الصعب ألا أجد ساعتين لصديقي كل أسبوع! أو على الأقل.. خمس دقائق لمكالمةٍ هاتفيةٍ.. أليس كذلك؟"

يبتسمُ في امتنانٍ، ما زال يرمقُ الدنيا بدهشةٍ كطفلٍ حائرٍ، رغم كل ما تلقاه من معرفةٍ عن العالم، كل هذا يُمكن أن ينتهي الآن، وهو من سيُقرر، غمزته مُبتسمًا أشير للشاي:

- "شاي بالياسمين؟"

- "وجدتُ نفسي أحبه كثيرًا!"

وأمسكتُ الكتابَ لأرى عنوانَه:

- "السـيرة النبويـة للصَّلابـي.. جميـل، وجـدتَ نفسَـك تُحـب القـراءة كذلـك؟"

- "كما كنـتُ هنـاك فـي الغيبوبـة، أتعـرفُ.. كنـتُ أقـولُ لنفسـي، فلأغتـنِ بكعـوبِ الكتـبِ عـن كعـوب النسـاء!"

- "فعـلًا.. هـذا خيـر اغتنـاء! لكـن إيـاك أن تفعـلَ ذلـك حرفيًّـا!"

- "مـن السـهل فعـل هـذا لـو أردت، الكتـب للأسـف تعـجُّ بالكعـوبِ ومـا هـو أسـوأ.. أو أفضـل!"

ضحكنـا كثـيرًا، تعـوَّد محمـود عالمـه الجديـد فعـلًا، بـل لعلـه أدرك أنهـما- العالمـان- نفـس العـالم بشـكلٍ مـا، سـألته:

- "أخبرنـي ثانيـةً يـا كافـكا، هـل النـاس فـي العاهـرةِ كانـوا... بالكامـل؟!!!!"

يضحكُ محمود بإشراقٍ:

- "كالحيوانات تمامًا!"

- "بالعكـس.. ملابـس الحيوانـات هـي الريـشُ والوَبـر وخلافـه، أمـا نحـن البشـر فقـد تـرك لنـا اللـه اختيـار

ريشـنا بأنفسِـنا! ومـاذا عـن الشـتاء؟.. ألا يُوجـد عندهـم بـردٌ وصقيـعٌ؟"

- "كان صيفًا لا ينتهي"

- " winter is not coming !!"

- "بالفعل!"

يسألني محمود للمرةِ الألف:

- "عبد الملك... لماذا حلمتَ بي؟"

وأصمتُ ناظرًا إليه قائلًا بصدقٍ:

- "ألا يقولـون إن الأرواح تتلاقـى فـي الملكـوت؟ لا تفسـيرَ لـديَّ غيـر أن رُوحيْنـا لهمـا نفـس الرنيـن resonance !"

- "عرفـتَ نظريـة الرنيـن؟!.. تـدرس الهندسـة أيضًـا يـا عبـده سـان!"

- "هـذا مـا قرأتـه عـن هـذه الظاهـرة، لسـنا أول مـن يـرى أحـلام الآخر"

- "حمـدًا للـه أنـك رأيتنـي فـي الحلـم.. فتحركـتَ وأنقذتنـي"

- "عرفـتُ أنـك تُناديـني... وجـدتُ نفسـي أتحرَّى مُتذكـرًا كلامـك عـن كونـان! لكـن... أتعـرفُ؟ أنـا متأكـد أن أيَّ صديـقٍ لـك كان سـيفعل الأمـر ذاتـه لـو حلـم بـك"

بـدا غـير مقتنـعٍ، لكنـه هـزَّ رأسَـه بمعنـى أن كلامـي قـد يكـونُ عـلى شيء مـن الصحـة، أتأمـل الأفـقَ عـبر نوافـذ المُـدرج، أتحـضَّر لمـا سـأقولُ:

- "محمـود... ليـس الحلـم المشـترك هـو الشـيء الأعجـب بقصتنـا، فأنـت سـألتني مـن قبـلُ كثيـرًا، كيـف عرفـت أن إنقـاذك بكلمـة مانيسَّـا حيـن أسـمعتك إياهـا فقـط"
- "بالفعل..أتمنى أن أعرف"
- "ألا تسـعدُ فـي حياتـك الآن؟ أترغـب فـي النبـش فـي ماضيـك؟"
- "أخبرتنـي أننـي عانيـتُ كثيـرًا مـن قبـل، لكنـي أحـبُّ أن أفهـم، مـا الـذي فعـل بـي هـذا، لمـاذا ذهبـتُ فـي غيبوبـةٍ طويلـةٍ هكـذا؟"

أتنهـد رامقًـا صديقـي، أخـرجُ مـن حقيبتـي التابلـت الـذي قـرأتُ مـا فيـه مـراتٍ لا حـصر لهـا منـذ الأمـس، أقـول لمحمـود:

- "يقولـون إن الكتابـة نتيجـةٌ معروفـةٌ للقـراءة، أن تقـرأ كثيـرًا يعنـي أنـك سـتكتبُ حتمًـا"

أمدُّ يدي إليه بالتابلت فيأخذه:

- "بالأمس فقط، فكرتُ في البحث من جديدٍ باسمك على النت، لكن باليابانية هذه المرة، هنا وجدتُ مُدونة باسم ياباني، لذا ليست مشهورةً ولا يزورها أحدٌ، المدونة كانت كبيرةً جدًّا حوت فصولًا عامةً عن كل شيء، لكني وجدتُ عناوين مميزةً مألوفةً لي بالذات عنك، جنس.. صداقة.. موت.. حب، شككتُ في الأمرِ فقرأتُها، اتضح أن المدونة تخصك، محمود العاشق للعزلة أبى إلا أن ينعزلَ على النت كذلك، قرأتُها كلها مراتٍ عديدةً، عرفتُ أن بحثي كان صحيحًا، عرفتُ ما شغل بال محمود كافكا بضراوةٍ في أحلك عصورِه، ووجدتُ فيها كل ما فعله ليعالجَ نفسَه، ليعوِّضَ ما فاته من الدراسة"

راح محمود يُمرر أصبعه على شاشة التابلت غير مُصدقٍ:

- "وماذا كان اسم المدونة بالياباني إذن؟"

- "カフカトン !!" [1]

- - "هكذا!"

- - "سأدعك الآن لتقرأ وتفهم، سأحضرُ كوبًا من الشاي ريثما تنتهي "

***

(١) カフカトン تُنطقُ باليابانيةِ... كافكاتوون!

الجُزْءُ الخَامِسُ

مِن المُدَوَّنَةُ



ما عُدت أحتملُ، طفح كيْلي وما عاد في القوْس مَنزعٌ، بكلِّ تعبيراتِ البلاغة والأدب.. نفد صبري، أين الخلاصُ من كل ما أقاسيه وأعانيه؟ كل الظروف تحالفت ضدي، كل مشكلاتي عادت معًا لتهزمني، أنا الذي عانيتُ منها كما لم يُعانِ أحدٌ، أهذا مرضٌ أم وهمٌ؟ أجلدي رقيقٌ إلى هذا الحدِّ؟ أم أني محضُ مخبولٍ؟

الجنسُ.. الحُب.. الموتُ.. الصداقةُ، كلها جاءتني تبغي رأسي، وأين أنا الآن من السلام النفسي؟ أين أنا من راحة البالِ وهناء الحال؟ ها هي ذي النتيجة.. رسبت في مادتين، ولا أدري كيف أُخبر أهلي، غير أنني عبرتُ مواد ثلاثة بقواعد الرأفة، لولا هذه الرأفةِ لأعدتُ السنة من جديدٍ، أنا؟.. أعيد سنةً كاملةً؟

مَا هذا الجَحِيمُ؟

وهل للخروجِ من سبيلٍ؟

***

فكرتُ كثيرًا في المخرجِ من جَحِيمي هذا، ولم أجد حلًّا سوى أن أتغير، وكيف لي بالتغير؟ كيف لي بالعودةِ كما كنتُ؟ قبل أن يفعلَ بي الجنسُ وأخواته ما فعلوا؟ أحتاجُ

إلى سحرِ هـاري بوتـر، أحتـاجُ إلى تعويـذةِ النسـيان كي أنـسى.. كـما كنـتُ ناسـيًا مـن قبـل..

أنـسى أجسـادًا شـبه عاريـةٍ تفتننـي في كلِّ شـارعٍ وشاشـةٍ وصفحـةٍ..

أنسى غرائز دفينةً تُعذبني..

أنسى حبيبةً لم أستطع حبها!

أنسى صديقًا نسيني ولن يذكرني..

أنـسى موتًـا أخـذ قريبتـي.. وسـيأخذني ويأخـذُ كل قريـبٍ وغـالٍ..

أنسى الحبَّ..

أنسى الصداقة..

أنسى الموت..

أنسى الجنس..

***

لكنـي لم أنـسَ شـيئًا، أمنيـةٌ مسـتحيلةٌ هـي، كيـف أنـسى مـا لا سـبيل إلى نسـيانه؟ كيـف أحيـا دونهـم بعدمـا عرفتهـم؟ وبعدمـا ذهـب مـن أنسـاني إياهـم؟ لم أسـتطع العيـشَ بمحـض

نيـة النسـيان، لأننـي لم أبلـغ هـذا لوهلـةٍ، لـذا سأسـعى إلى ذلـك سـعيًا، سـأنسى كل هـذا، سـأنسى قـسرًا وإجبـارًا، لكـن كيـف؟

ألا أجـدُ طريقـةً مـا؟ أمامـي شـهورُ العطلـة الصيفيـة بأكملهـا، أمامـي الإنترنـت بأكملـه، هـل يمكـن فعـل هـذا حقًّـا؟ بسـحرٍ مـا.. بتماريـن روحيـة معينـة.. يوجـا أو أي شـبيهٍ، تعويـذة نسـيان هـاري بوتـر تلـك.. ألا أجـدُ لهـا شـبيهًا في الواقـع؟ أحتـاجُ النسـيان الخـام.. التـام.

سأبحثُ وأبحثُ ولن أملَّ البحثَ لحظةً، حتى أنسى...

***

قضيـتُ أربعـة شـهور في البحـث، وأخـيرًا وجـدتُ طريقـة، وجدتهـا حقيقـةً واقعـةً بخطـوات عمـل وملاحظـة واسـتنتاجٍ كـما كنـا نـدرس تجـارب العلـوم، يقولـون إن التنويـم المغناطيـسي مـن السِّـحر، تبـدو الطريقـةُ التـي سـأتبعها سـحرًا بالفعـل، لكـن هـذا لـن يحجمنـي عـن خطتـي، سـأنسى مـن أجـل مسـتقبلٍ أفضـل، سـأنسى مـن أجـل أبي وأمـي، سـأنسى مـا لا بـد مـن نسـيانه حتـى تسـتمرَّ حيـاتي.

وأعـددتُ كل شيء، فقـد فكـرتُ مـرارًا وتكـرارًا في خطتـي، سـأنسى مشـكلاتي الأربـع، لكنـي أعـرفُ أن النسـيان التـام

سيجعلني نسيًا منسيًّا! سيحطمني ولن يجعلَ مني إنسانًا؛ فكل شيء من الأشياء الأربعة هو قطعة من روحي، الجنسُ مثلًا، خبراتٌ كثيرةٌ ومعارفُ أكثر تُحيط به، هل سأعودُ مرةً أخرى لأسألَ غيري: كيف أتيتُ إلى هذه الدنيا؟!! هل سأسألُ عن معنى الصداقة المجرد ولن أعي معنى أن فلانًا صديقي؟! أو أن شخصًا ما مات.. أو أني أحب أبي وأمي؟

سأحتفظُ من كل شيء بما أحتاجه فقط للعيش، سأنزعُ ذراعي لكني سأبقي على أصابعي! لا يبدو التشبيهُ معقولًا.. لكن حياتي الآن ليست معقولةً هي الأخرى.

لهذا سأنسى مع الاحتياط لكل هذا، خططتُ أن يبقى المعنى الأصلي في رأسي، إذ كتبتُ منه ما أحتاجُه فقط في ورقةٍ دسستها في مصحفي، كل شيء مكتوبٌ مع مرادفاته المحتملةِ التي سأسمعُها في حياتي اليومية، إليها سأنظرُ كلما احتجتُ إلى تذكر ما نسيتُه، هذا النزْرُ اليسيرُ سيُعوض الفجواتِ الهائلةَ في عقلي وإدراكي للأمور، سيكون علمًا ينفعُ وجهلًا لا يضرُّ.

أما الخبرةُ الكاملةُ التي وصلت إليها بأعوامِ عمري كله عن المشكلاتِ الأربع والتي أودُّ الخلاص منها، فلن أخسرَها أيضًا ولن أقلقَ بصددِها، فالسحرُ يسمحُ لي

بالعـودةِ كـما كنـتُ، لا يحتـاجُ الأمـرُ أكـثر مـن الوقـوفِ أمـام المـرآةِ وترديـد كلمـة الـسر ثـلاث مـراتٍ عـلى مسـامعي، عندهـا يعـودُ عقـلي كـما كان طبيعيًّا تمامًـا قبـل النسـيان، اشـتريتُ خاتمًـا و كتبـتُ داخلـه كلمـة الـسر، هـي مناسـبةٌ جـدًّا لهـذه الخطـة، واسـتعضتُ عـن المـرآةِ بتطبيـقٍ يجعـلُ خلفيـة هاتفـي كالمـرآةِ عـن طريـق الكامـيرا الأماميـة، سـتكونُ مـرآتي معـي في كل وقـتٍ مـا احتجـت إليهـا، والعـودةُ مضمونةٌ في كلِّ حـينٍ.

***

الآن أسـائلُ نفـسي كثـيرًا قبـل فعلهـا... هـل أعـي حقًّـا مـا أنتـوي فعلـه؟ أنـا الآن في طريقــي لحـذفِ قطاعـاتٍ كاملـةٍ مـن ذاكـرتي بطريقـةٍ هـي إلى السـحر أقـرب، أربعـة أشـياء.. أربعـة أمـور، صـارت أربـع مشـكلاتٍ تُؤرقنـي.. تقـضُّ مضجعـي.. تـدكُّ بـالي، كيـف سـأضحِّي بعدمـا أُزيلهـا تمامًـا إلا أقـل القليـل، أحتفـظُ بالقواعـد فقـط بينـما أقـوِّض صروحًـا مهمـةً في وعيـي وذهنـي وكينونتـي؟

وهـل أنـا وحـدي الـذي تـأذَّى وعـانى مـن أمـورٍ كهـذه؟ حُـب مسـتحيلٌ.. وصديـقٌ خائـنٌ.. وأحبـابٌ يموتـون.. وغرائـز حاميـةٌ؟ لسـتُ الوحيـدَ حتـمًا، لكنـي الأشـد في الأذى والـضرر،

جروحـي ثخينـةٌ وألمـي شـديدٌ، بـل إني لا أجـدُ لنفـسي عيشًـا وسـط هـذا العـذاب، أنـا مغلـوبٌ عـلى أمـري.. أنـا مُضطـرٌّ.

بـل إن عقـلي ليغرينـي بالتفكـير بشـكلٍ آخـر، مـاذا عـن النسـيان وماهيتـه مـن الأصـل؟ فحتـى دون هـذه التجربـة العجيبـة، أنـا أنـسى بطبيعتـي أكـثر مـن الـلازم، أنـسى الـبرَّاد عـلى النـار، أنـسى إيقـاظ أمـي في الموعـد كـما طلبـتْ منـي، أنـسى تنـاول العـلاج في أوقاتـه! أنـسى مـكان مفتـاح البيـت، أنـسى بـضراوةٍ.. نسـيانٌ مَـرَضي مخيـفٌ.

بـل إني كنـتُ أنـسى أمـورًا أخطـر، ذنـوبي وخطايـاي التـي ارتكبتهـا، أخطـائي التـي أكررهـا مـرارًا.. لأننـي نسـيتها! مواقـف الآخريـن معـي التـي عـلى أساسـها سـأعاملهم، معلومـاتي في الهندسـة التـي تهمنـي أكـثر مـن كل شيء آخـر، لمـاذا أنـسى قوانـين الموائـع ولا أنـسى أحـداث هـاري بوتـر؟ لمـاذا أذكـر التفاصيـل الحميمـة وأنـسى أحـداث السـيرة؟.

كان النسـيانُ حـاضرًا في عالمـي ربمـا أكـثر مـن أي شـخصٍ، وعانيـتُ مثالبـه كثـيرًا، لكـن مشـكلتي ليسـت أنَّنـي أنـسى، بـل مشـكلتي أننـي أنـسى أننـي أنـسى! وأعـود مـرةً أخـرى إلى نسـياني، ولكـن.. الآن فقـط سـأوظف النسـيان كـما ينبغـي، سـيكونُ النسـيان حليفـي وليـس ضـدي، لمـاذا أنـسى كل شيء إلا مشـكلاتي؟

سـلْ أي إنسـان عـما يحـب أن ينـسى لـو أتيحـت لـه الفرصـة، وسـيتلو عليـك قائمـةً طويلـةً معروفـةً، أنـا كذلـك.. أنــا صُدمــت بشــدةٍ وعلاجــي الوحيــدُ هــو النســيان، ولا أسـتبعدُ أبـدًا أن الطـب الحديـث قـد توصَّـل لتقنيـةٍ طبيـةٍ مـا تُنـسي المـرءَ مـا يرغـبُ بنسـيانه، لكـن شـيئًا كهـذا ربمـا أجـده في بلـدٍ كاليابـان فقـط! فمـن أيـن لي بتكاليـف النسـيان اليابـاني (الحديـث)! سـأفعلها كـما عرفتهـا.. سـحرًا أو غـيره، مـا مـن طريـقٍ آخـر.

سـامحني يـا ربي، واكتـب لي نجاحًـا لخطتـي، وملاذًا مـن عـذابي.

***

حانـت اللحظـةُ المناسـبةُ أخـيرًا، مـا مـن أحـدٍ في البيـت، المــرآة أمامــي، الظــلام طــاغٍ إلا مــن شــمعتين عــن يمينــي ويســاري، الأوراقُ في يــدي، والهاتــف الــذي ســيكونُ جهــاز التسـجيل الـذي يُمـلي عـليَّ الأوامـر، أكتـبُ هـذه الكلـمات قبـل الـشروعِ في التنفيـذ، تهتـزُّ يـدي بشـدةٍ ويجـفُّ حلقـي، هــل أتراجــعُ؟.. هــل أتقهقــرُ بعدمــا غــزت جيــوشُ اليــأسِ كل قلاعـي؟ لمـاذا يكتنفنـي هـذا الشـعورُ بالذنـبِ؟ وكأننـي أرتكـبُ جريمـةً في حـقِّ نفـسي؟

جريمـة؟.. أيـة جريمـة؟ الجريمـةُ هـي أن أدعَ نفـسي تهـوي دون التشـبث بـأي أمـلٍ ينقـذني، الآخـرون يُعاقـرون الخمـرَ لينسـوا، يتعاطـون المخـدرات أو يزنـون، أنـا لـن أفعـلَ مثلهـم، سـأنتهجُ طريقتـي الخاصـة للنجـاة، يخطـرُ لي سـؤالٌ منطقـيٌّ مُهـم:

- "لماذا لا تنسى وسط زحام العمل والكدح كدَيْدَنِ البشر؟"

لا عمـل.. لا كـدح أو بـذلًا لمجهـودٍ، مـا دامـت تلـك الأغلال تُكبلنـي، وإذا حاولـت المـشي تعرقلنـي، سـأنسى أحـزاني.. سـأنسى مـا ينبغـي نسـيانه.

***

انتهيـتُ لتـوِّي، رأسي يؤلمنـي قليـلًا، لا أشـعرُ بـشيء سـوى الخـواء التـام، بمعنـى آخـر... لا شـعور مـن الأسـاس، لكـن مـاذا عـن سـلامي الداخـلي وصفـاء سريـرتي؟ عقـلي كقـرصٍ صُلـبٍ تمـت تهيئتـه format مـن جديـدٍ، ذهنـي أصفـى مـن المـاس، مـاذا أردتُ أن أنـسى؟ لحظـةً.. سـؤالي هـذا يعنـي أننـي نسـيتُ!

سـأقرأ الآن مـا كتبتـه في الورقـةِ عـسى أن أتذكـر، الجنس... الحـب.. مـا هـذه الأشـياء؟ لا أعـرفُ عنهـا شـيئًا!

***

بدأتُ العامَ الدِّراسي كأفضل ما يكونُ، أصعب المواد لا تُمثل لي أكثر من مسائل جمع و طرح بدائيةٍ، ذهني يقبلُ كل شيء ولا يشكو لحظةً، أين كانت هذه الروعةُ من قبل، ما الذي كان يشغلني هكذا؟ ما تلك المواد البلهاء التي رسبتُ فيها في العام الماضي؟! لنرَ الآن ما كنتُ أحاولُ نسيانَه، الجنس.. الحب.. الصداقة، يا للسخافة! بالأمس اتصل بي صديقٌ قديمٌ ولم أعرفه من الأساسِ! لعله الصديقُ الذي نسيتُ الصداقةَ من أجله أصلًا!

***

محمود كافكا يتكلم، وقد صار الأول على الكلية بلا منازعٍ، مرَّت اختباراتُ نصف العام على خيرٍ، بل على كلِّ خير، وحين ظهرت النتيجةُ كانت أكبر دليلٍ على نجاح الخطة، غير أنني صرتُ أنسى أكثر من اللازم، زادت نظراتي في الورقةِ إياها متحججًا بأنني أحفظُ القرآن بأسرع وقت، هل يعني هذا شيئًا؟ هل تأثر عقلي بالتجربة وصارت ذاكرتي متطايرةً كذاكرة الحاسوب قصيرة المدى RAM !

ما حاجتي أصلًا إلى تلك الأشياء؟ أنا الآن في أوج انطلاقي ومستواي العلمي والعملي، أنا لا أفكِّر في شيء مما بتلك الورقة، وقتي كله للمذاكرة وحسب، أليس من الأفضل

لنا أن ننسى ما يُؤذينا ويُعذبنا، أليس النسيان نعمةً من خالقنا؟ حتى إنني فكرتُ في إضافة أشياء أخرى لأنساها إلى الورقةِ، أشياء من الجيد نسيانها... العرب وفلسطين! ومعهم سوريا وبورما طبعًا، لكنني لم أتخذ قراري الأخيرَ بهذا الشأن، على كلِّ حالٍ ما زال معي خاتمي وكلمة السر، أستطيعُ العودة في أي وقتٍ لنقطة البدء.. لكن ليس الآن.. ليس الآن.

فالآن قد أصيرُ مَلِكَ العالم كله، بمحضِ نسيان منغصاتِ حياتي!

***

اليوم ضاع مصحفي، نسيته في المسجد لو أردنا الدقة، زاد نسياني للكثير من الأشياء بخلافِ الدراسة، حتى إنني نسيتُ اليومَ رقم الحافلة التي أستقلها إلى منزلي، يُمكنني العودة الآن لحالتي الأصلية بالكلمة على الخاتم ومَن ثم كتابة ورقة أخرى، لكن لا داعي لهذا، امتحانات آخر العام دنت بشدةٍ، فلأنس ما أردتُ نسيانه!.

***

ينقصُني امتحانٌ واحدٌ وينتهي العامُ بأكمله، مشكلةٌ واحدةٌ حدثت الآن، فقدتُ خاتمي الذي به الكلمةُ دون

قصدٍ أثناء الوضوء، هذه المرةُ دون قصدٍ فعلًا، لأنني حاولتُ التخلصَ منه كثيرًا من قبلُ، لرغبتي في نسيان كل ذكرياتي المزعجةِ دون رجعةٍ، وفي كل مرةٍ أعودُ لأسترجعه من جديدٍ، ضاع الخاتمُ الآن.. بلا رجعةٍ، ولكن فلأنسَ هذا الآن، المهم هو الامتحانُ الأخيرُ فقط..

***

أنهيتُ العام، لكنني انتهيتُ، لا أعرفُ كيف أعودُ لحالتي، هل هذا مهم؟ لا أظن، سأعيشُ الآن حياتي ولو ناسيًا، صحيحٌ أنني لا أستطيع فهم الكثير من الأمور، وكنت أعتزلُ العالم كله بحجة المذاكرة، والآن مع انتهاء العام.. ما حجتي؟ لكنني الآن أفضل من ذي قبل، رغم كل هذا، أنا لا أعاني آلامًا من أي نوعٍ، وينتظرني نجاحٌ باهرٌ، فلأعشْ بأي طريقةٍ إذن، لا بأس.. لا بأس.

***

لكنني ما زلت أشعر بالضياع.. بالتيهِ وسط أعقد متاهةٍ، لا أدري ماذا أصابني، فكرتُ بالعودةِ إلى المسجد والبحث عن المصحف، لا أحدَ سيأخذه بالطبع، سيبقى مع المصاحف الأخرى، بالفعل وجدته... شكله مميز ولكن... لم أجد الورقة بداخله، ما العمل الآن؟ ليتني كتبتُ ورقةً

أخرى.. ليتني احتفظت بكلمة السر في مكانٍ آخر، لماذا أقول هذا؟... لأنني نسيتها! كما أنسى كل شيء آخر، ضاع مني الخاتمُ أثناء الوضوء، فهل أراد لي إلهي أن أضيعه إذن؟ هل هذا هو عقابي وجزائي حقًّا؟

ضاعت كلمتي المنجيةُ.. ونسيتها، فأنا لم أسجلها على الخاتم سوى لخوفي من نسيانها، والآن هل كُتب عليَّ أن أعيشَ بلا ذاتٍ وروحٍ؟ ماذا أردتُ أن أنسى أصلًا؟! أهناك مكانٌ آخر أعثرُ فيه على ما فقدت؟ ولو كان موجودًا... هل سأتذكره؟ أخشى أن أنسى مكان هذه المدونة أصلًا... نعم المدونة، كتبتُ فيها الكثيرَ عن نفسِي سأعودُ لأقرأ ما كتبته علّه يُساعدني.

***

لم أفهم شيئًا.. لأني لا أذكرُ شيئًا، هي خواطرُ شخصٍ يائسٍ وحسب، لكن كل ذكرياتي وخبراتي مُبادةٌ، هل أدركتُ الآن بعدما انتهت الامتحانات ما فعلته في حق نفسي، صرتُ أنسى كل شيء إلا الهندسة، أصابتني التجربة بأذى لم أتوقعه، اليوم نسيتُ اسم أمي! فقدتُ القدرةَ على معاملة غيري تمامًا، أنا محضُ آلةٍ للمذاكرة فقط،

أيـن الحـل الآن.. ومَـن لي بالخاتـم الـذي ضـاع وضـاع معـه وجـودي وروحـي؟

مـاذا سـأنسى مجـددًا، وإلى أيِّ حالـةٍ سـيؤول موقفـي؟ أشـعرُ كمـن يسـقطُ في هاويـةٍ بـلا قـرارٍ، لا أطـول سـماءً ولا أبلغ أرضًـا، رأسي يُؤلمنـي عـلى الـدوام، لكنـي لـن أبـوحَ بـشيءٍ مـن قصتـي لأي مخلـوقٍ، أنـا مَـن آذيـتُ نفـسي، سـأبقى هكـذا حتـى يتغمـدني إلهـي برحمـةٍ منـه وفضـلٍ، الإلـه.. مـاذا كان اسـمه؟.. مـاذا كان اسـمه؟!





الخاتِمَةُ بقلم

«عبد الملك»



عُـدتُ لمحمـود كافـكا، للشـخصِ الـذي حـاول نسـيانَ أحزانـه ففعـل هـذا حرفيًّـا بسـحرٍ مـا، وقـد نـسي بالفعـل كل شيء عـدا دراسـته، حتـى أصابتـه تجربتُـه بغيبوبـةٍ، وفي غيبوبتـه عـادت أحزانُـه لتطاردَه في شـكلٍ جديـدٍ، لتنتجَ قصةً أخـرى بطلهـا إيسـاف برصيصـة! وأنـا عبـد الملـك الـذي أعـاده مـن غيبوبتـه حـين فهمـتُ السـحرَ بشـكلٍ مـا، وجدُتـه يُحـدِّق في الأفـق مفكـرًا، انتهـى مـن قـراءة مذكراتـه إذن، ولعلـه الآن يُقـرر... هـل يفعلهـا؟ توجَّهـت إليـه مُبتسـمًا لكنـي وجدتـه واجـمًا حزينًـا:

ـ "ما الأمر؟"

ردَّ في تؤدةٍ:

ـ "هكذا أنقذتني إذن... بمعرفتك للكلمةِ الصحيحةِ"

باسمًا أجبتُه:

ـ "بعـد كل تحليلـي.. كنـتُ مُوقنًـا مـن شـيءٍ واحـدٍ ولا أدري كيـف فعلتـه... أنـك نسـيت، بـل أنسـيت نفسـك بشـكلٍ مـا، حبيبتـك وصديقـك وأمـورًا أخـرى، لمـاذا يحتفـظُ مـن أنسـى نفسـه كل شـيء بخاتـمٍ عليـه كلمـةٌ معينـةٌ؟ لأنهـا مهمـةٌ جـدًّا بالنسـبةِ إليـه، توافـق هـذا مـع تخمينـي أنـك وقعـتَ فـي الغيبوبـة لخلـلٍ أحدثتـه

برأسِك، ولا بد أن لهذا عَلاقةً بالكلمةِ المهمة على الخاتم، كانت نظريةً مجنونةً ونسبةُ نجاحِها نصف بالمائة، لكنها كانت كل ما أملك، وكانت متحققةً بشيءٍ من الخيال، أنت حقَّقت الخيال بالسحرِ كما تحكي، ومن النت عرفت أن الأمرَ ممكنٌ، قرأتُ الطريقة مباشرةً من موقعٍ على الشبكة العميقة، فلن يكونَ الوصولُ لسحرٍ كهذا بالسهل عبر الشبكة العادية، أنت فكَّرت هكذا طبعًا، وفي نفس الوقت تتبعت كل شيءٍ حتى عرفتَ الكلمة، الكلمة التي تعني مباشرةً أنك نسيتَ أحزانك بها"

- "ولهذا لم أعد بكاملِ ذاكرتي، تحقَّق نصفُ الشرطِ فقط بقولِ الكلمة ثلاث مراتٍ، أفقتُ من الغيبوبة فقط"

أُعَلِّقُ فِي مَرَحٍ:

- "تخيَّلْ لو أنني اكتفيتُ بقولِ الكلمة مرةً واحدةً أو اثنتيْن!"

لكن محمود لم يبتسم.. يصمتُ لوهلةٍ ثم يُوجه السؤالَ لنفسهِ قبلي:

- "أنا... أنا فعلتُ هذا كله من أجل.. من أجل ماذا؟"

أصمتُ ناظرًا إليه بتأييدٍ، أقول بصراحةٍ:

- "مـن أجلـك أنـت.. فعلتَهـا فـي لحظـة ضعـفٍ، فعلتَها لتنسـى أحزانـك، إذ يبـدو أن سـبيلًا غيـر هـذا لـم يكـن متاحًـا لـك، أنـت المتناسـي الأعظـم! مَـن فينـا لـم يُحـبَّ يومًـا أن ينسـى مـا يريـده مثلـك؟! كلُّ الشـبابِ العـزَّاب يتمنـون لوهلـةٍ أنْ ينسـوا حاجتهـم للجنـسِ الآخـر حتـى يُدبـروا المـالَ الكافـي للـزواج علـى الأقـل، مـاذا عمـن ماتـت أمـه مثـلًا؟ سـتجده مُسـتعدًّا لفعـلِ أي شـيء حتـى ينسـى مُصيبتَـه العظمـى هـذه، كمـا أن أفضـل حـلٍّ لمـن خانـك مـن النـاس هـو أن تتجاهلـه كأنـك لـم تعرفـه يومًـا، كنـتَ علـى وشـك أن تنسـى أنـك عربـي كذلـك! وأن ثمـة بقعـةً معذبـةً فـي العالـم تخصـك وتُدعـى فلسـطين ولا تسـتطيعُ فعـل شـيء مـن أجلهـا أو أخواتهـا، صدِّقنـي يـا كافـكا، مـا نحـب نسـيانه كبشـرٍ لا حـدَّ لـه، أمـا بالنسـبة لنـا كعـربٍ.. يتضاعـفُ مـا نريـد نسـيانه! وكمصرييـن.. ضاعـف هـذا لأضعـافٍ مضاعفـةٍ!، بـل إننـا نفعـل هـذا بشـتى الوسـائل فـي كلِّ يـومٍ، تخطَّينـا كل الأمـم فـي التجاهـل، نُحـب التناسـي لا شـعوريًّا بمباريـاتِ الـدوري المصـري أو الأوروبـي رغـم البـوْن الشـديد بينهمـا! نسـعى لـه بفيلـمٍ لراقصـةٍ

مصريـةٍ أو أرمينيـة! لكـن ليـت النسـيان حـلًّا، أنـت جرَّبتـه حرفيًّـا.. فهـل وجدتَـه ناجعًـا؟... أعثـرتَ فيـه علـى ذاتِـك حقًّـا؟"

يصمـتُ.. ناظـرًا لأسـفل، تسـقط دمعـةٌ مـن رموشـهِ لـلأرضِ، أقـولُ مُشـجِّعًا رابتًـا عـلى كتفـه:

ـ "لكنـك الآن تقـدر علـى العـودة، علـى إعـادة كل الأمـور إلـى نصابهـا"

لا يردُّ مُجددًا، كطفلٍ غريرٍ يُخبرونه أن مصيره بيده:

ـ "لكني الآن أعرفُ كل ما نسيته"

ـ "تعني معنى الموت.. والحب.. والجنس؟"

ـ "أعرفهـم.. أعرفهـم جميعًـا، عشـتُ حيـاةً كاملـةً هنـاك فـي العاهـرة وعرفتهـم و.."

بـدا حائـرًا لم يـزل، فقـررتُ مسـاعدتَه فـورًا، أخرجـتُ هاتفـي، اخـترتُ الكامـيرا الأماميـة، ناولتـه إيـاه، راح ينظـرُ لنفسـهِ كأنـه يلومهـا:

ـ "الآن... الأمـرُ بيـدك، قُـلْ مانيسًّـا ثـلاث مـراتٍ.. تعـدْ محمـود كافـكا القديـم"

واسـتمرَّ محمـود ينظـرُ، ولا يُحـرِّك سـاكنًا، وأنـا أنتظـره، وأتسـاءل كل ثانيـة...

هـل سـيُفضل العـودة؟ ويتذكـر كل مـا آلمـه وأحزنَـه وأعجـزَه؟ وهنـا وجدنـا مـن يدخـلُ المـدرج الصغـير، فتـاةً طويلـةً بضفـيرةٍ بـدا أنهـا تظـن أن ثمـة محـاضرةً تُقـام هنـا، دارت بنظرِهـا في المـكان حتـى رأتنـا، مـن غيرهـا؟.. ياسـمين طبعًـا! بادلتنـا النظـرَ للحظـةٍ بـلا أي تعبـيرٍ.. وحدَّقـت بمحمود للحظـةٍ، لحظـةٍ بـدتْ كدهـرٍ، وأخـيرًا هـزَّت رأسَـها تحيـةً لنـا مـع شـبح ابتسـامةٍ، واسـتدارت خارجـةً مـن بـاب المـدرج.

نظـرت لمحمـود الـذي خـرج مـن شرودِه وابتسـم في حنـينٍ! حكيـتُ لـه عنهـا كثـيرًا لكنـه لم يرهـا قـط.. في الواقـع بعـد عودتـه، قـال باسـمًا:

- "تلك هي.. نائلة!"

- "أعرف!"

لكنـه عـاد لمرآتـه في الهاتـف، وعـاد لوجومـهِ وحيرتـهِ، وعُـدت أنـا لأتسـاءل:

هل يقولها كافكا الآن؟

هل يفعلها ويعودُ؟

هل؟!!!



الخاتِمَةُ بقلم

" مُحْمُود كِافكِا"



حكـوا عنـه الكثـيرَ، وقـرأتُ عنـه أكـثر، لا شيء نافسَـه في ذكـره وسـطوته، تفنـن الجميـعُ في وصفـهِ، غصَّـت بـه الأشـعارُ منـذ عرفنـا الـكلام، تلقفتـه حناجـرُ الطـرب والغنـاء، الـكل شـدا بـه، الـكلُّ ولـهَ بـه، الـكلُّ أراده بشـدةٍ، فـلا شيء يُضـارع لذتـه ووقْعـه في النفـوسِ، لـذا بـذل الجميـعُ في سـبيله كلَّ عزيـزٍ وغـالٍ، وجـرت مـن أجلـه البطـولاتُ والملاحـمُ، وظلـت حكاياتـه ومآثـرُ أبطالـهِ حـاضرةً خالـدةً مـا دام الزمـانُ، فهـل عرفتـه أنـا الآخـر؟.. عرفتـه، معـك أنـتِ!

عرفــتُ الحــب يــوم أحببتــك، يــوم عشــقتُ ســكناتك وحركاتــك، تفاصيــل وجهــك.. رمشــات عينيــك.. لفظــات لســانك، هــل أبالــغُ؟.. هــل أغــالي في مشــاعري وأقــوالي؟ لا أظـن.. ولا أظنـك تعرفـين مـا بداخـلي، لا يسـعني إلا أن أخـبرك بصراحـةٍ، مـا خبرتـه معـك مـن إحساسـاتٍ لا يُضاهيـه شيء آخـر، أجمـل شـعور.. أزهـى عصـوري عرفتهـا معـك، ذاكـرتُ معـك كـما لم أذاكـر.. بلغـتُ قمـة نجاحـي ومجـدي وسـعادتي، أكُل هـذا لم يكـن سـوى روعـة الحـب الأول السـاذجة المؤقتـة؟ أكانـت مشـاعري محـضَ أفاعيـل الكيميـاء في الـرأسِ والجسـد؟ دوبامـين وسـيروتونين ومـا شـابه؟

قالــوا لي أنــت غريــرٌ غــضٌّ، أنــت لا تعــرفُ شــيئًا عــن الحــبِّ الــذي تتشــدَّق بــه، أيــن أنــت مــن حــبِّ العبــد لربــه؟

أو لدينـهِ ورسـولهِ؟ مـاذا تعـرفُ عـن حـبِّ الابـن لوالديْـه؟ حُـبِّ الوطـن.. والأرض، حُـبِّ العلـم والمعرفـة، أكدوهـا لي صريحـةً، لسـت إلا مغبونًـا تعيـشُ زيـف التجربـة، سـتفيقُ منهـا بعـد حيـنٍ، وتعـودُ لرشـدك وتُـدرك مأسـاتك إذ وضعـت حبـك في المـكان الخطـأ، ومـاذا عنـكِ أنـتِ؟.. أتوافقينهـم عـلى قولهـم؟ أعـرفُ أنـك لا تُبادلينني المشـاعر.. ولم تفهمـي كلماتي القليلـة معـك ولكـن.. ولكـن مـاذا عسـاي أفعـلُ.. يـا مانيسًّـا؟

ربمـا هـم عـلى شيء مـن الحـق، فأنـا لم أعرفـك عـن قـربٍ، ربمـا لم أعرفـك عـلى الإطـلاق! إذن فهـو الإعجـابُ وليـس الحب، الإعجـابُ بوجهـك الأسـطوري الـذي فعـل بي الأفاعيـل، أو هـي نظـرةُ التقديـس التـي يُوجههـا منطـوٍ مثـلي لأي أنثـى جميلـةٍ وكأنهـا كائـنٌ نـوراني جميـلٌ ليـس أكـثر.. كـما يقـولُ المحللـون النفسـيون! فالحـب أكـبر مـن هـذا.. أقـدس وأعظـم بكثـيرٍ ولكـن.. ولكننـي أحببتـك! أحببـتُ حبـك.. وأحببـت عالمـي بـك، حـين كلمتـك.. تمنيـت أن أخـبرك عـن الـشيء الوحيـدِ الـذي يُقصينـي عنـك، شَـعرك المكشـوف.. وملابسـك التـي لم تتعمـدي أن تكـونَ مثـيرةً، لكنهـا حتـى إن لم تكـن كذلـك لي أنـا، كانـت مخالفـةً للديـن وللمجتمـع، رغـم أنهـما- الديـن والمجتمـع- مختلفـان عندنـا كـما يكـون الاختـلافُ والتبايـنُ!

كـدت أخـبرك بـكلِّ شيء، لكننـي جبنـتُ عـن هـذا، خشـيتُ ردة فعلـك، خشـيتُ أن تُواجهينـي بالحقيقـة نفسـها مـن ناحيتـي، أنـا نفـسي لا أطبِّـق الديـنَ وفروضَـه كـما ينبغـي! ولا مجتمعـي بأكملـه الـذي نشـأت عـلى عُرفـه وشرعـه! مجتمعـي المتناقـضُ الـذي يـكاد يُضاهـي الفرِّيسـيِّين في حـبِّ المظهـر فقـط وإغفـال الجوهـر! مجتمعـي الـذي فيـه ألـفُ رأي وألـفُ مُحلـل وألـفُ مُحـرَّم، كأنـه ألـفُ ديـن.. وليـس دينًـا واحـدًا، المُحلـل زنديـقٌ فاسـقٌ، والمُحـرَّم رجعـي متخلـفٌ! اهتمـوا بسفاسـفِ الأمـور وخاضـوا في الفـروع ناسـين الجـذعَ نفسَـه، ناسـين العمـلَ والنجـاحَ والتميـز الـذي رأيتـك أنـتِ- بملابسِـك هـذه- تسـعين إليـه سعيًا! كيـف أجـدُ نفـسي كمؤمـنٍ بـين كل هـذا؟! أنـا الـذي احتـار في اختيـار لـوني المُفضـل منـذ الصغـر!

أعـودُ لحديثـي معـك عـن الحـبِّ، الحـبُّ جميـلٌ يـا مانيسَّـا.. أيًّـا كان شـكله! حتـى لـو كان مثـل حبـي! أتعرفـين قصـة الجيـش الـذي توجَّـه لغـزو مدينـةٍ، فوجـد عـلى أطرافهـا أحـد شـبابها يبـكي بحُرقـةٍ، فسـأله قائـدُ الجيـش عـما يُبكيـه، ليجيـبَ الشـاب أنـه أخفـق في إصابـة الهـدف عنـد الرمـي بالسـهام، هنـا أمـر القائـدُ جيشَـه بالرجـوع فـلا يمكنـه غـزو مدينـة أهلهـا كهـذا الشـاب الطمـوح، وبعـد عـشر سـنين تكرَّر

الموقفُ، سار القائدُ بجيشهِ تجاه المدينة ووجد شابًّا آخر يبكي، وحين سأل عن السببِ أجابه الفتى أنه يبكي لفراق حبيبته، ليطمئن قلب القائد ويأمر جيشه بالتقدم فالغزو صار سهلًا مضمونًا، هنا تنتهي القصةُ وأسائل نفسي.. هل الفتى الأول لم تكن له حبيبةٌ؟ أم لعله اطمأن إلى حبيبته فاهتم برمي الأهداف!

لستُ أول من أحب بهذا الشكل الأحادي! فقد سبقني دانتي أليجيري في إيطاليا، وسيرانو دي برجيراك في فرنسا، وحسن المرواني في العراق، المرواني الذي يقول عن حبه الشبيه بحبي:

إني بغيرِ الحُبِّ أخشابُ يَابسِةٍ ... إني بغيرِ الهوى أشباهُ أمواتِ!

وهناك غيرنا الكثير ولكن رغم كل هذا، كان حلمًا لا يُوصف بكلماتٍ، عشتُ فيه السعادة والانطلاق والتقدير المرتفع، وأفقتُ منه حين رأيتُ استحالة الوصول لقلبك، وانتكستُ بشدةٍ بعدها يا مانيسًّا، حين هاجمني الأعادي قاطبةً، هاجموني بلا رحمةٍ، إذ عدت وتذكرتهم! هل كان يكفي فقط أن أتذكرهم ليعودوا؟!.. أي نوعٍ من الأعداء هذا؟! أنساهم فيتركوني.. وأتذكرهم فيعودوا من جديدٍ؟ والآن لا أدري ماذا سيفعلون بي، فقد كنتِ يا مانيسًّا.. ملاذي ونجاتي ولذا أسميتك مانيسًّا!

لأنـك فعلـتِ بي نفـس مـا فعلتـه مانيسَّـا ابنـة النبـي يوسـف عليـه السـلام، أنسـته أحزانـه كـما أنسـيتني أنـتِ أحـزاني، بـل إن حـروفَ اسـمك هـي ذاتهـا حـروفُ اسـم بنـت النبـي! وإن كنـت لسـت ببنـت النبـي في مظهـرك وأخلاقـك، فأنـا أيضًـا لسـتُ كذلـك، لسـتُ ابـن النبـي التقـي الـورع، لكننـي أحببتـكِ وسـأحب حبـك دومًـا.

بحبـكِ سـموتُ عـلى غرائـزي واقتربـتُ نوعًـا مـن أخـلاق الأنبيـاء! حـين قدَّسـت حبـك فصـار شـامخًا في سـمائي وهجـرت كل مـا أدنـاه! ولم أنظـر لوجـهِ أنثـى أخـرى سـواك فضـلًا عـن التضاريـس الأخـرى! حتـى مسـابقات ملكـة جـمال العـالم كنـت أعافُهـا طوعًـا وأنـا العاشـق لـكل جـمال... فقـد اكتفيـتُ منـك! هجـرتُ كراخانـات الفكـر هجـرًا، ومـا أكثرهـا في ذهنـي وذاكـرتي يـا مانيسَّـا! حتـى حـين كانـت إحداهـن تنظـرُ لي، كنـتُ أزهـد في النظـر لهـا قانعًـا بحبـي الصامـت لـك! كل هـذا دون أن أقـتربَ منـك بمـا يكفـي! فـماذا لـو اقتربـت؟!

- "ولكن لماذا؟"

تسـألينني لمـاذا يـا مانيسَّـا؟ لأنـك.. لأنـك أنـتِ! لأنـك أجمـل شيء حصـل لي، لأنـك الياسـمين الـذي عطَّـر دنيتـي، لأنـك نعمـةُ الحـب والنسـيان التـي اكتنفتنـي، لأنـك مانيسَّـا،

لأنك بالنسبةِ إليَّ.. بنت النبي يوسف، فماذا سيُصيبني الآن دونك.. ودون حبك المُنسي وسلواكِ؟!

المَقالُ الأولُ بمدوَّنةِ

カフカトン

(ورقة في مذكرات أحد طلاب كلية الهندسة)

حُبٌّ/ عشقٌ: أسمى عَلاقة بين اثنين، خاصة بين رجلٍ وامرأةٍ.

موتٌ/ وفاةٌ/ منيّة: رحيلٌ من الدنيا إلى دنيا أخرى.

صداقةٌ/ صُحبةٌ: هي عَلاقةٌ بين اثنين أو أكثر، تعني معرفة الاسم وبعض الصفات والتاريخ المشترك بين الأصدقاء والأصحاب.

فلسطين : ....

العرب : ....

اليومِ الأربعاء، والمكانُ مَسجد الكلية، بعد محاضرتي الهندسة المدنية صلّيت الظهر وآليت قراءة ما يتيسّر من القرآن، اخترت مصحفًا من أحد الرفوف وانهمكت في قراءة معشوقتي سورة يوسف، وبينما أقلب الصفحة، وجدت هذه الورقةَ مدسوسةً بحرصٍ بين الصفحات، بفضول بشريٍّ عتيدٍ فردتُها وقرأتُ ما بها.

في البداية صُدمت بالتعريف الثاني الذي شطبته بمجرد رؤيته وكدتُ أمزّقُ الورقةَ فور انتهائي من قراءتها، لكنّني رضختُ لإغراء الاحتفاظ بها، ربّما لما فيها من أفكارٍ تأمليةٍ، فما الذي يدفعُ أحدَهم لكتابة كلامٍ كهذا؟ وما الرابطُ بين ما كُتبه من تعريفاتٍ؟.. بين العشق وفلسطين! حقيقةً دفعني للتفكير في كنه ومعنى ما كُتب، وسألتُ نفسي طويلًا.. ماذا كان صاحبُ الورقة سيكتبُ في المساحات الخالية؟ سأبقيها معي... فربما أكملها بنفسي يومًا ما..

كلية الهندسة، المسجد

بتاريخ : ١٤ / ٥ / ٢٠١٦

توقيع :

م / أحمد صبري

"تمَّت بحمدِ اللهِ"

القاهرة ٢٠١٦

الشكر الجزيل

لأستاذي الجميل

عمرو العادلي

لتشجيعه و دعمه المتواصل و نصائحه القيمة فلولاه لما خرجت القصة للنور

و شكر آخر لا أنساه لكل من :

أمي التي علمتني القراءة

أبي الذي أورثني حب القراءة

أخي الذي أرجو ان يحب القراءة !

و كل صديق و صديقة قرأوا العمل و أبدوا ملاحظاتهم أو ساعدوني في اختيار ما احترت بصدده ، لن أستطيع ذكركم كلكم في صفحة أو اثنتين ، لكنكم تعرفون أنفسكم يا من أقصدكم!

للتواصل مع الكاتب



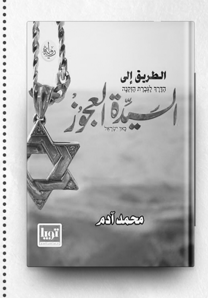
Mhmoud_pc@yahoo.com


شريف أسعد
#اعترافات_جامدة

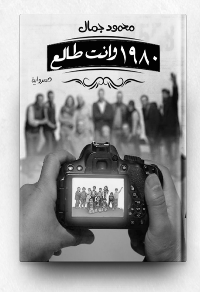

رواية
حواديت السعادة
شريف أسعد


Subject
الورقة
Book!
15000 نسخة


بالطوو فانله وتاب
أحمد عاطف


الطريق إلى
السيدة العجوز
محمد آدم


رواية
الرّاحِلون
أحمد إبراهيم موسى


محمود جمال
١٩٨٠ وانت طالع

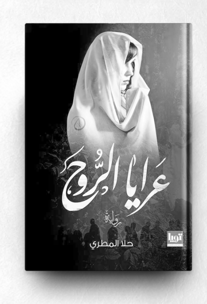

التجربة الفكرية
لروح أمه
كيرلس بهجت

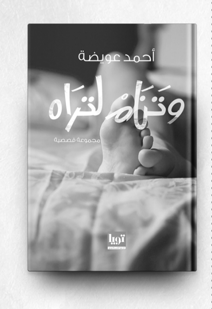

د. محمود طه
الخروج عن النص

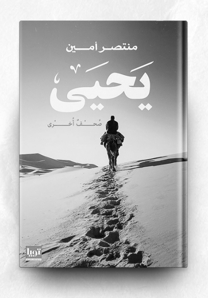

محمد عبد الصمد
تويا


مُنتَصر أمينْ
الطواف
رواية
تويا


ياسمين حسن
رواية
ماريا
تويا

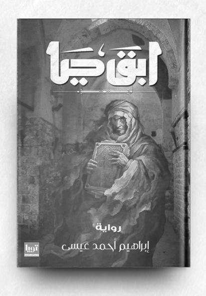

عرايا الروح
رواية
حلا المطري
تويا


أحمد عويضة
وتنام لتراه
مجموعة قصصية
تويا


منتصر أمين
يحيى
صُحفٌ أُخرى
تويا


ملكوت
رواية
شريف عبد الهادي
تويا


معرض الكتاب
إغتيال بدوافع أدبية
رواية
عبدالرحمن جاويش
تويا


ابق حيا
رواية
إبراهيم أحمد عيسى
تويا



دار تويا للنشر والتوزيع